أنين الجائعين

تأليف

محمد ونيس







تأليف

محمد ونيس



مقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده سبحانه وتعالى ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه.

أما بعد:

لا تكاد تغرب شمس يوم ولا يبزغ فجر جديد إلا وتقرأ في الصحف أو تشاهد عبر الفضائيات أو على الإنترنت صرخات واستغاثات من مسلمين جياع في شتى بقاع الأرض..

فلماذا جاع هؤلاء ونحن أمة الجسد الواحد؟

لماذا جاع هؤلاء ونحن أمة التكافل والتراحم؟

لماذا لا يضمد بعضنا جراح بعض؟

هل نتركهم لحملات التنصير تساومهم على دينهم بكسرة خبز؟

هل ترضى لأخيك أن يبيع دينه بامتلاء معدة؟

أترضى لأخيك أن يموت جوعًا؟

من أجل هؤلاء المنكوبين في كل مكان كان كتاب «أنين الجائعين»، لتنبيه الغافلين من المسلمين بمآسي هؤلاء الجوعى في كل مكان، حتى يطعم المسلمون هذه الأفواه الجائعة، قبل أن يسألنا الله تعالى: لماذا تركتموهم يموتون جوعًا؟

وأسأل الله تعالى أن ينفع كل من قرأ هذا الكتاب، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله منه برآء، والله ولي التوفيق.

كتبه: محمد ونيس

إنَّ الغلاءَ معَ البلاءِ ترافقا

وتسابقا في محنةِ الفقراءِ

كم من عيونٍ تشتكي بدموعها

جوعًا وقهرًا قِلَّةَ الرُّحَمَاءِ

أتحجَّرت فينا القلوبُ وأصبحت

بعدَ المُصَابِ كصخرةٍ صمَّاءِ

البردُ يفتكُ بالعظامِ فكم بكى

طفلٌ يُدَثَّرُ بالأسى بشتاءِ

كيف استطعنا العيشَ دونَ تَرَفُّقٍ

بمن اكتسى بعباءةِ التُّعساءِ

وائل بحا

أولًا: ناقوس الخطر

الجوع

آفةُ كل العصور وداء الأمم، عدو لا تراه، مُلازم للإنسان مُلازمة ظِله، لا يُفارقه ليلًا أو نهارًا، يموت الجوع كلّ يومٍ ملايين المرات ويحيا كلّ يومٍ ملايين المرات؛ يموت الجوع بكسرة خُبز ويحيا بفراغ المعدة.

هو ذاك العملاق الذي ما صارع أحدًا إلا غلبه، وما قاتل حيًا إلا قتله، إذا اشتد على قومٍ أفناهم، وإذا صارع أمة أبادها، لا يقتله إلا الشِبَع والرِي. الإنسان يحتاج إلى الطعام دائمًا؛ لأنّه مصدر الطاقة والقوة، فالطعام للإنسان كالوقود للسيارة، فإذا خلت المعدة من الطعام؛ شعر الإنسان بالجوع، إذن.. فما الجوع؟

في اللغة: الجُوعُ هو خُلُوُّ المعدة من الطعام. (معجم الوسيط)

الجوع: « إحساس جسدي غير مريح أو مؤلم بسبب عدم كفاية استهلاك الطاقة الغذائية. يصبح مزمنًا عندما لا يستهلك الشخص كمية كافية من السعرات الحرارية (الطاقة الغذائية) على أساس منتظم ليعيش حياة طبيعية ونشطة وصحية».

(منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة)

لن أتكلم كثيرًا عن تعريف الجوع؛ فهو واقع ملموس كلّنا يعيشه ويحياه، بل ويلامسه، فَمَن مِنَّا لم يَجُع يومًا؟

ومن منا لم يكتوِ بناره؟

ومن من الناس لم يتجرع غُصَصه وآلامه، زائر وضيف ثقيل، يهاجمنا صباحًا ومساءً، ويفترسنا بالليل والنهار، فمَن مِنّا لا يعرفه؟

ومَن مِنّا لم يقع فريسة له؟

الجوع غريزة فطرية تنشأ مِن الحاجة إلى الطعام.

أحيانًا نجوع لأننا لا نجد ما نأكله لأسباب لا دخل لنا فيها؛ كقلة الطعام، أو الفاقة الشديدة، أو الفقر المدقع، أو المجاعات المهلكة، وهنا يكون الجوع إجباريًا (الجوع الاضطراري).

وأحيانًا نجوع لأننا نريد أنْ نجوع لأسباب عديدة، فيكون جوعنا هنا اختياريًا (الجوع الاختياري).

الجوع الاختياري:

هل يُجيع أحدنا نفسه بمَحض إرادته؟

نعم، عندما تحتاج إلى الطعام وتمنع نفسك منه وأنت تمتلكه وفي استطاعتك أن تأكل، فأنت تُجِيع نفسك بمحض إرادتك؟

ولكن.. لماذا يُجيع أحدنا نفسه باختياره؟

إمّا طمعًا في ثواب، وإمّا خوفًا من عِقاب، وإمّا رجاء في فائدة، ومن أمثلة ذلك: جوع الصيام، وجوع الزّهاد والعبّاد، وجوع الحِمية، وعدم الشِّبَع، وعدم الأكل إلا بعد جوع، هذا النوع من الجوع محمود في الشرع؛ إذا انضبط بالتوسط والاعتدال وخلا من الضرر بالجسم.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما ملأَ آدميٌّ وعاءً شرًّا مِن بطنٍ، بحسبِ ابنِ آدمَ أُكُلاتٌ يُقمنَ صُلبَهُ، فإن كانَ لا محالةَ فثُلُثٌ لطعامِهِ وثُلُثٌ لشرابِهِ وثُلُثٌ لنفَسِهِ»، (صحيح الترمذي)، قال الحافظ ابن رجب: «هذا الحديث أصل جامع لأصول الطب كلها».

وقد ذكر العلماء أن لهذا النوع من الجوع فوائد كثيرة، لذلك كان السلف يمّدحون هذا الجوع ويذمون الشبع.

قال محمد بن واسع: من قَلّ طعمه فهم وأفهم، وصفا ورقَّ.

قال الحسن البصري: إذا أردت أن يصحّ جسمك ويقل نومك فأقلل من الأكل

وقال لقمان لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وقعدت الأعضاء عن العبادة.

قال الإمام ابن عقيل: قال رجل لحكيم: كم آكل؟

قال: دون الشبع.

قال لقمان: يا بني، لا تأكل شيئًا على شبع، فإنك تتركه للكلب، خير لك من أن تأكله.

هذا هو الجوع الاختياري الذي تُجِيعه لنفسك باختيارك، وأنت تمتلك الطعام.

هذا الجوع الاختياري ليس موضوع هذا الكتاب، إنّما موضوعنا الجوع الاضطراري

الجوع الاضطراري

ماذا نقصد بالجوع الاضطراري؟

هو ذاك الجوع الذي يكون إذا لم تجد ما تأكله، ولا ما تسد به رمقك. الجوع الذي منشأه الحاجة، والفقر، والعوز، وقلة ذات اليد، جوع المجاعات، تريد أنْ تأكل فلا تجد طعامًا، فأنت مضطر حينها إلى الجوع.

الجوع الذي يمزق الأمعاء تمزيقا ولا تستطيع دفعه عن نفسك؛ لعدم توفر الطعام.

الجوع الذي يجعلك تلازم الفراش من شدة الألم عندما تخلو المعدة من الطعام، ويمنَعُ صاحِبَه مِن القيامِ بأمورِ دينه ودنياه.

الجوع الذي يجعلك صريعًا للمرض وإذا استفحل أسكن صاحبه القبر، هذا هو الجوع الاضطراري الذي تعوّذ منه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ منَ الجوعِ، فإنَّهُ بئسَ الضَّجيعُ»؛ (صحيح أبي داود)

الجوع الذي قال عنه الإنجليز في أمثالهم: «الجوع يطرد الذئب من الغاب».

وقالت عنه العرب: « الجوع كافر».

وقد وصف الشاعر شدة ضعفه وهزاله فقال:

إنَّ في بُردَيَّ جِسمًا ناحِلا

لَو تَوَكَّأت عَلَيهِ لَانهَدَم

وقال آخر

كَفى بِجِسمي نُحولًا أَنَّني رَجلٌ
لَولا مُخاطَبَتي إِيّاكَ لَم تَرَني

وقال الأعرابي يصف ناقته الجائعة:

لقد هُزِلَت حتى بدا من هُزالها
كُلاها وحتى سامها كل مُفلسِ

الجوع الاضطراري الذي ضُرِب به المَثَل فقيل: « أَجْوَعُ مِنْ كَلْبَةِ حَوْمَلَ»: وحومل هذه امرأة أعرابية كانت تُجِيع كلبتها، وهي تحرسها، فكانت تربطها بالليل للحراسة وتطردها بالنهار وتقول لها: التمسي لنفسك طعامًا ليس لك طعام عندنا. فلم تجد الكلبة ما تأكله، فلما طال ذلك عليها أكلت الكلبة ذيلها من الجوع.

هذا الجوع الاضطراري هو الذي نقصده في هذا الكتاب.

الجوع ابتلاء من الله يبتلي به العبد ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، لماذا يبتلي الله العبد؟ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، ما جزاء من يصبر على ابتلاء الله؟ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]؟

الله (عز وجل) يبتلي عباده بالجوع ويجازي الصابرين على صبرهم؛ يوفِّيهم أجرهم بغير حساب، وأما من جزع ولم يصبر فلا أدرك ثواب الصابرين ولا رد الجزع عنه جوعه.



الكنز الغذائي

يقول أحدهم: عِند رحلتِي الأولى إلى فرنْسا أيام الدراسة الجامعية، كنتُ أبحث عن عملٍ لأحصُل مِنه على مالٍ يساعدني على التجَول والتنَزه في ربوع «فرنسا»، وكذلك حتّى أستطيع العودة إلى «مصر» وفي حوزَتِي ملابس باريسية أتبختر بها في الجامعة، وبعض المال الذي يعين على شراء الكتب والجلوس بكافيتريا الكلية.

في ذلك الوقت عِشتُ حياة المُتشرّدِين، فكنتُ أنام في الشارع، وأفترش الحدائق العامة، وأتسلل إلى حوش أي بيتٍ مفتوحٍ ليلًا؛ لأقبَع تحت السلم حتى الصباح.

ولا أنسى مِن ذكريات تلك الأيام، أنني كنتُ أخرج في الصباح أسير على ضفة نهر «السين»، ثم أجلس على دِكة مِن تلك المنتشرة على الممشى السفلي المُحاذي للنهر، وكنتُ بفعل الفراغ والبطالة كثير الشرود والتأمل، وكانت تنتابني أفكار كثيرة عن الغنى، والفقر، والتقدم، والتخلف، بعد أنْ شاهدتُ العرب المسلمين من خريجي الجامعات بالإضافة إلى أفارقة يعتمدون في غذائهم على صفائح الزبالة.

وقد جرحتني نصيحة قدّمَها لي أحدهم يعمل في غسيل الأطباق منذ دهورٍ في باريس، عندما أراد أنْ يخدمني أخذني من يدى إلى تجمع كبير لصناديق القمامة، ثم فتح أحدها ومدَّ يده وأخرج بعض حبَّاتِ الخوخ والموز المعطوبة جزئيًّا، وقال لي: خُذ، مد يدك، غيرك يتمنى أن يعرف هذا المكان، تستطيع أنْ تعتمد على هذا المخزن في غذائك وتوفّر نقودك لأشياء أهم!



شعرتُ وقتها بإهانةٍ وجُرحٍ عَمِيقَين، ولم أفهم مع تقديري لحسن نية الرجل كيف تصورني سأفرح بعيشة الكلاب الضالة هذه؟

ومن العجيب أنّ مكان مكبِّ النفايات الباذخ هذا كان من الأسرار التي يحتفظون بها لأنفسهم؛ حتى لا يزاحمهم وافدون جُدد في كنزهم الغِذائي!





هل ماتت القلوب؟

في إحدى زوايا الغرفة، تنام على سريرها المتهالك، أنينها تنفطر له القلوب، ويبكي له الحجر، قد اجتمعت عليها الآلام: آلام الجوع، وآلام المرض.

بجوار سريرها يجلس صغيرها البائس، يخترق أنينها فؤاده المكلوم، وترمقها عيناه الدامعتان، فآلامها أنسته آلام معدته الخاوية، يعيش الصغير مع أمه في تلك الغرفة المتهالكة بلا عائل، يعيشان على صدقات المحسنين.

قام الصغير يلتمس طعامًا في الغرفة، ولكن، من أين يأتيه الطعام؟

إن الغرفة خاوية من الطعام منذ ثلاثة أيام!

خرج الصغير هائمًا على وجهه، كل ما يتمناه كسرة خبز ينقذ بها حياة تلك المسكينة، التي تئن في سريرها، المتشبثةً ببضعة أنفاسٍ تُوشِكُ أن تَنفَدَا! تحتَ لهيب الشمسِ الحارقة يجرُّ خطواتِه، وعلى وجنتيهِ الحمراوَينِ يقْطرُ العرقُ المختلط بهموم العيش، يستترُ ببنطالٍ اختفتْ ألوانُه وبقميصٍ مُرَقّعٍ!، ينتعلُ رمضاءَ الأرض المشتعلة، ويستنشقُ حرارة الشمس المتربِّعة في كبد السماء! يزعجُه كثيرًا صراخُ بطنه الفارغ منذُ أيامٍ... يحاول أن يصمد.. فيَهدُّهُ التعب.

ينظر في وجوه الناس؛ يبحث عن بقايا إنسانٍ، ومن عينيه تتساقط الأمطار، يصرخ صارخ في أعماق نفسه: «أيها الناس لا أسألكم سوى حبات أرز أو رغيف خبز أنقذ به تلك المسكينة، لا أريد منكم شيئًا سوى أن نبقى على قيد الحياة، لا أريد سوى فضل طعامكم وفتاتكم، ألا تعطفون علينا؟





ألا ترحمونا؟

أرجوكم، الجوع يقتلنا!».

وجد في طريقه مطعمًا فانبعث الأمل في قلبه من جديد.

وقف أمام أبواب المطعم منكسرًا حزينًا، يقلب نظره في وجوه الداخلين والخارجين؛ لعل عينًا تراه، أو قلبًا يرقّ له، أو رحيمًا يمسح دمعته، أو يدًا حانية تربت على كتفه.. لكنه، عبثًا كان واقفًا، فأعينهم لا تراه، لأنهم لم يذوقوا للجوع طعما.

بدأ يتمتمُ بصوتٍ حزين لكل خارج:

-أرجوك يا سيّدي.. أريدُ طعاما لأمّي المريضةِ..

بعد كلّ نداءٍ يقف منتظرًا لردٍّ أو حتى لالتفاتةٍ.. ولكنهم عنه ذاهلون.

بدأ الطفل يخاطب نفسه:

لماذا يمرون وكأنهم لا يسمعون؟

ألا يسمعون توسلاتي؟!

لماذا لا يرانا الناس؟

هل أصبحنا في نظرهم موتى؟

خرج صاحبُ المطعم ليُغلقَ أبوابه.. فأغلق باب أملٍ كان يرجوه.

جلس الطفل على حافة الطريق منهمرًا في البكاء ودموعه سيوف تجرح خدَّيهِ!



لقد أُوصِدَتْ في وجهه جميعُ الأبواب وتحطمت آماله.

وقع بصره على نافذةٍ في سيارةٍ فارهةٍ تطلُّ منها سيدةٌ أنيقة.. قال لنفسه:

-لابدّ أن تكون المرأة أكثر رقةً من الرجال الذين قابلتُهم.

قصد السيارة ومدّ يدهُ النحيلةَ نحوَ السيدة التي تركبُ في الخلف.. لكنّها اصطَدمتْ بزجاجِ السيارة النظيف.. طرقَ النافذة وهو يُشير بسبّابته نحو السماء..

فُتحت النافذة، فانفتحت معها أبوابُ الأمل مجددًا.. لم يَدُمْ ذلك طويلًا.. فالنافذة التي فُتحت لم تلبث أن أُغلقتْ بعدما خرجَ منها منديلٌ متسخٌ ارتطمتْ به كلُّ أحلامِ الطفلِ لتتكسّر أمامه، وتركته السيارة ورحلت.

نظر الصغير فوجد عجوزًا خرجت من منزلها وفي يدها كيسًا تحمله،

فأسرع إليها ليستعطفها، ولكن خاب أمله، إن الذي تحمله قمامة!

فكر قليلًا.. ثم قال لها: ماذا تحملين يا أماه؟

قالت: إنه كيس قمامة.

قال: دعيني أحمله عنكِ يا أماه.

فأخذه منها وانطلق، حتى غاب عن عينيها، ثم فتح الكيس فوجد القمامة وكسيرات خبز، فالتقط الكسيرات وعاد مسرعًا فرحًا إلى أمه التي وجدها قد فارقت الحياة!



طوق النجاة

ترتدي ملابسًا باليةً رثة، يتناثر شعرها على صفحات وجهها الذي يتصبب عرقا، وتسير بقدميها حافية على رصيف يلتهب نارًا، تحرقها شمس الظهيرة، أمعاؤها الخاوية تزأر كزئير الأسد الجائع، عيناها لا تستقران، تلك هي ابنة السبع سنوات، التي أصابها الجهد والتعب، فجلست إلى حائط تستريح وأسندت ظهرها إليه، وقد أنهكها الجوع.

لم يختلف حال أخيها الصغير ذي الخمس سنوات عن حالها شيئًا، تقدّم الصغير إلى أخته؛ ليمسح قطرات الماء الغزيرة التي تسيل على خديها؛ فقد اختلطت الدموع بقطرات العرق حتى ابتل الثرى، رقّ الصغير لحال أخته رغم آلامه، ود لو استطاع أن يهديها كسرة خبز تطفئ لهيب جوعها!، لكنه الفقر المدقع وقلة ذات اليد، جلس الصغيران وكأنهما ينتظران أن يحنو عليهما أحد الرحماء أو يشفق عليهما أحد المحسنين، أو يسقط رغيف خبز من أحد المارة فيلتهمانه، ولكن قد طال انتظارهما، نظر الصغيران فوقع بصريهما على صندوق القمامة؛ فتهلل وجهيهما فرحا وأسرعا إليه، فقد رأياه طوق النجاة، ولكن سرعان ما اختفت علامات البشر والسرور!، إنهما صغيران لا يستطيعان أن يمدا يديهما داخل الصندوق؛ فإن الصندوق يعلوهما، نظر الصغيران إلى بعضهما نظرة بؤس تحيطها خيبة أمل!

نكس الصغير رأسه شفقة على أخته، ولكن سرعان ما برقت عيناه وتهلل وجهه فرحًا، وألقى يديه على الأرض وامتثل وضع الجواد، وأشار إلى أخته أن تقف فوق ظهره وتلتقط من القمامة ما تريد، لم يجدا سوى خليط من طعام داخل كيس، رائحتها نتنة، فجلسا يلتهمانه التهاما.





تحت المطر

برودةٌ شديدةٌ؛ بل زمهريرٌ قارس.. أمطارٌ تتساقط.. ولكنْ.. بِغزارة..

شوارع خلتْ مِن المارّة إلا مِن بعض المضطرين..

اختبأ النّاس في منازِلهم؛ علّها تَقِيهم هذا الصَقِيع وترحمهم مِن سَيلٍ جارفٍ مِن الأمطار..

في هذا التوقِيت..

يقِف «هيثم» وسَط القُمامة..

يرتدي ملابسًا مُتَسِخة قد رُقِّعَتْ أكثرها..

ابن الثالثة عشر

ولكن..

مِن آثارِ الهموم يبدو وكأنّه كهْلا؛

وجهٌ شاحب يكْسُوه اصفرار، وعينان غائرتان تبدو عليهما الحُزن والأسى، ولحْم قد ألْتَصَق بعظم.

رآه أحد المارّة.. فاقترب مِنه وسأله:

يا بُنيّ، لِماذا تقِف وسَط القُمامة وفي هذا الطقس القارس؟

هيثم: لعلّي أجِد كِسرة خُبزٍ ولو كانتْ مُتعَفِنة، أو أجِد بعضًا مِن الخضروات والفاكهة ولو كانتْ فاسدة،

أو أجِد قِطعة لحْمٍ أو بقايا عَظمٍ ولو مَرّت عليها أيام.

يا سيدي:

نَحنُ نَأتِي إلى مساكِن الأغنياءِ في الأحياء الراقية؛ نبحث عَن طعامِنا وسط القمامة!

الرَجُل: يا بُنَي، ألمْ يُساعِدكم

أحد؟

هيثم: لمْ نَجِد أحدًا يشفَع لنا مِن الفقر الذي يُلازمنا منذ سنواتٍ، صَبرنا على الوضْع الذي نمُر به؛ فبيتُنا أتحدى أي أحدٍ أنْ يَقبَل السَكَن فيه!، تأقْلمنا مع مرارةِ الحياة..

لكنْ، كلّ شيءٍ تجاوز حدوده..

فهل يتحمل أي طفلٍ أنْ يقْضِي أيامًا عِدة ولا يجِد ما يأكُله؟.

ثمّ نظر بأسى قائلًا:

أنا الآن.. أبحث عنْ بقايا الطعام.. فهناك بعض الناس المُترفين يُلْقُون ببقايا اللحوم والدجاج وكذلك الخضروات والفواكه في القُمامة، فنجمعها ومن ثَمّ نغسِلها ونأكلها!

الرجل: يا بني، ألا تخشى أنْ تُصَاب بأمراض إذا أكلتَ مِن القُمامة؟

هيثم: تَعَودنا على كلّ شيء مرّ في حَياتِنا، وذلك أرحم بكثير من أنْ ننام ونصحو ونحن جِياع، وغيرنا مِن الأطفال يأكلون كلّ ما لذّ وطاب،

اندهش الرجل مما سمع!

ولكن..

دهشته لَمْ تدُم طويلًا..

فقد نظر إلى أعلى القُمامة، فوجَد طِفلًا آخر يبحث فيها.

ابن الثانية عشر يبحث في القمامة، فوجَد بها ملابسًا مُستعملة؛ تَهَلل الطفل فرحًا وكأنّه حقق حلمًا كان يراوده..

اتجه الرجل إلى ابن الثانية عشر.. وقال له: يا بني، لماذا تأخذ هذه الملابس القديمة؟

قال الطفل: إنّ الملابس التي أرتديها لها أكثر من عامين لديّ وقد قَصُرت عليّ وعلى الرغم من ذلك أرتديها، فأبِي غير قادر على أنْ يوفّر الطعام؛ فَبِكُل تأكيد لنْ يَقْدِر على شراء الملابس الجديدة، فالملابس الجديدة في العيد ليست في قاموس حياتنا منذ سنوات.

أمّا الزّي المدرسي، فهذا ما تتكرم به علينا بعض العائلات المُترفة من ملابس أبنائها المُستعملة!

عَزِيزي المسلم: لِماذا تركنا هؤلاء يبحثون عن طعامهم بين العفن، والنتن، والدود؟

أخْبِرِني عنْ حالِ قلبك حينما ترى

طفلًا يبتسم.. لماذا؟

لأنّه وجَد بِنطَالًا في القمامة؟

أو ترى..

عجوزًا.. تَتَدَثْر بِشالٍ مِن الصُوف يَقِيها البرد، تقِف بيَن أكوام القمامة؛

علّها تَجِد مَا يسد جُوعها..

أو ترى..

امرأةً.. ربطتْ قِطعةً مِن القُماش المهترئ في خَاصِرتها.. لماذا؟

تجمَع فيها بقايا أرغفة خُبزٍ مِن القمامة..

وأخرى تجمع بقايا طعام من على الأرض!

ولمّا سُئلت إحدى النّساء.. لماذا تأتين إلى أكوام القمامة؟

قالت: يلبس أولادي مِن القمامة ويأكلون مِنها!

نَجِد أحيانًا حبات برتقال أو تفاح في حالة جيدة نأخذها لنأكلها، حتى الملابس نأخذها من القمامة.

ثم تقول:

نعيش لأنّ الموتَ ضَنّ أنّ يأخذنا.. فالموت أفضل مِن هذه الحياة!

أخي المسلم: ألم تسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم:

« فُكُّوا العانِيَ، يَعْنِي: الأسِيرَ، وأَطْعِمُوا الجائِعَ، وعُودُوا المَرِيضَ»؛ صحيح البخاري.

لماذا تناسينا كلامه صلى الله عليه وسلم:

لما سُئل أي الأعمال أفضل؟

قال:

«أفضلُ الأعمالِ أن تُدخِلَ على أخيك

المؤمنِ سرورًا، أو تقضى عنه دَيْنًا

، أو تطعمَه خبزًا».

(صحيح الجامع)

وأي سرورٍ أعظم مِن أنْ تسد جوعته؟

أو تستر عورته؟

أو تقْضِي حاجته؟

أو تمسح دمعات نسائه وأطفاله؟

أو تُسَكِن آلام مَعدته التي أكلتْ بعضها بعضا؟

بماذا تجيب ربك حينما يناديك:

«....يا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قالَ - العبد-: يا رَبِّ، وكيفَ أُطْعِمُكَ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ؟!

قالَ: أَمَا عَلِمْتَ أنَّه اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟

أَمَا عَلِمْتَ أنَّكَ لو أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذلكَ عِندِي،

يا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي،

قالَ - العبد-: يا رَبِّ، كيفَ أسْقِيكَ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ؟!

قالَ: اسْتَسْقاكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إنَّكَ لو سَقَيْتَهُ وجَدْتَ ذلكَ عِندِي.

(صحيح مسلم)

فيا من أطعمت مسلمًا جائعًا أو سقيت مسلمًا ظمأنًا

يقول لك النبي صلى الله عليه وسلم:

«.... أيُّما مُسلمٍ أطعَمَ مُسلِمًا على جوعٍ أطعَمَه اللهُ مِن ثِمارِ الجَنَةِ، وأيُّما مُسلمٍ سقى مُسلمًا على ظَمإٍ سقاه اللهُ - عَزَّ وجَلَّ - من الرحيقِ المختومِ»، (سنن أبي داود- إسناده حسن).

عزيزي: إن الله أعطانا المال من فضله ثمّ طَلَبه لعباده الفقراء لِماذا بَخِلنا به على إخواننا؟

ولِماذا تركناهم جَوعى؟

لِماذا تركْناهم في العراءِ دون سقفٍ يَقِيهم أو بيتٍ يأويهم؟

فقراؤنا يفترشون الأرض ويلتحفون السماء.

لِماذا تركْناهم يتكَففَون النّاس؟

هل ماتَتْ الرحمة في قلوبِنا؟

هل تركنا الإنسانية ورحلنا إلى وحْشِية الغَاب؟

عزيزي: لقد سأل الفقراء عن الرحمة فوجدوها قد رحلَت، وسألوا عن الإنسانيةِ فوجدوها قد دُفِنت، فقالوا:

أينَ نَجِد الرحمة؟

أينَ نَجِد غِذاءنا؟

أينَ نَجِد لِباسنا؟

أينَ نَجِد مَن يُنقِذنا مِن الموت؟

فصاحتْ أكوام القُمامة: أيها الفقراء!، قد سمعتُ أنِينَكُم، ورأيتُ بُكَاءكم، وآلَمَنِي صُراخكم وسؤالكم؛ فبكيتُ لِحالِكم.

أيها البؤساء!، أغنياؤكم لا يرونكم ويروني، يبغضونكم ويحبوني.

أيها الفقراء! طعامكم ولِباسكم عِندي أمثال الجبال، أهداني الأغنياء المُترَفون أطنانًا من الطعام والشراب واللباس، وبَخِلوا بِها عليكم، فهلْ تقْبلون طعامكم وشرابكم ولباسكم مِنّي؟



أكْوَام القُمَامة

منذ متى كانتْ أكْوام القُمامة مصدرًا لطعام الفقراء والمساكين؟

وهل تَصلُح أنْ تكون مصدرًا للطعام؟

أليس مِن العارِ والشّنَارِ أنْ يأكل فقراؤنا مِن القُمامة؟

أينَ إسلامنا؟

أينَ رأفتنا؟

أينَ رحمتنا؟

أليس لهذا الجائع حق في أعْناقِنا؟

إنّ أحدنا إذا وقع بصره على أكوام القمامة كاد أن يتقيأ من فظاعة ما يرى: جيف، ونتن، وقذارة، وإذا مرّ بِجوارها أسرع خُطاه وكتم أنفاسه؛ حتّى لا يزْكُم أنفه رائحتها النَتِنة!

لماذا تركنا إخواننا يأكلون من هذه القذارة؟

لماذا تركناهم لهذه المذلة والمهانة؟

ترى جائعًا وسط هذه الأكوام يبحث عن كِسرة خبز، أو عظم، أو قِطعة لحْم، أو ما يسد جُوعه الذي كاد يقتُله!

لِماذا لَجَأَ هذا المِسكين إلى القُمامة؟



لعلّ أكوام القمامة تُنسِيه قَسوة البَشَر؟

أو تنسيه خذلان إخوانه؟

أو تَقِيه لَهِيب جُوعِه القاتِل؟

أو تَحْنو عليه بقطعة ملابسٍ رثةٍ تستر جسده العاري أو ترحمه مِن برد الشتاء؟

إنّ أكوام القمامة أرحم بهِ مِن ملايين البشر، الّذين يتغَنون بالرحمة والرأفة بالحيوان.. أليس الأولى أنْ نرحَم هذا الجائع المسكين؟

لقد رأينا مِن الأثرياءِ المُترَفِين مَن يُنفق الأموال الطائلة على تدليل كلبٍ أو قطةٍ ويترك بني جِنسَه يموت مِن الجُوع!

أقام أحد الأثرياء المسلمين في إحدى الدول الإسلامية احتفالا كبيرًا لزواج كلبين، أنفق على هذا الاحتفال أموالًا كثيرة، ووعد أن يقيم احتفالات كثيرة مثل هذا الاحتفال الباذخ لتزويج الكلاب!

فهل فرغنا من تزويج شبابنا ولم يتبقَ سوى تزويج الكلاب؟!!

هل انتهينا من إطعام الأفواه الجائعة؟

وماذا عن المسلمين المشرّدين في الملاجئ؟

ماذا عن طعامهم؟ وماذا عن بكائهم؟ وماذا عن أطفالهم؟ وماذا عن نسائهم؟

ومما يثير الدهشة والحيرة أن تخرج إحدى الشاشات في دولة إسلامية يموت سكانها جوعًا، تفتخر أن لديها فنادق للكلاب!، تقول صاحبة الفندق:

«يوجد بالفندق غرف للكلاب الصغيرة وأخرى للكلاب الكبيرة، ويوجد عمال مختصين للتعامل بعناية شديدة مع كل أنواع الكلاب، ونقدّم وجبات الطعام اليومية لهم في مواعيد محددة، الوجبة طعام مجفف، والتنزه ثلاث مرات يومياً في الحديقة، والفندق لا يوفر الإقامة فقط للكلاب لكنه يقوم بالاعتناء بهم، وتدريبهم، وتعديل سلوكهم، ومساعدتهم على الزواج»؛ اهـ.

امرأة في إحدى البلاد الغربية تركت في وصيتها عقارًا قيمته أكثر من عشرة ملايين دولار تبرعت به للكلاب، النصف لصندوق الكلاب، والنصف الآخر لجمعية رعاية الكلاب.

عزيزي: إن كلاب الأثرياء تعيش عيش السعداء، وتحيا حياة المترفين الأغنياء، وفقراؤنا البؤساء يعيشون عيش الأشقياء، ويحيون حياة الكلاب الضالة.

إن من القطط والكلاب من يأكل طعامًا يشتهيه البشر ولا يجدون إليه سبيلا، القطط والكلاب يأكلون أجود أنواع اللحوم وأشهى الدجاج وفقراء المسلمين لا يرونها إلا في أيدي البائعين أو في الأعياد والمناسبات!

فهل صار الكلب أغلى من الإنسان؟

وهل يتمنى الجائع أن يكون قطًا من القطط أو كلبًا من الكلاب ليطعمه الأغنياء ويعتنوا به؟!!

إنّه لمِن المؤسِف حقًا: أنّ إحدى الدول تُنفق اثنين وسبعين مليون دولار على طعام الحيوانات الأليفة.. وتترك أكباد الفقراء تتفتت جوعًا.

يقول السباعي: «حين يرحم الإنسان الحيوان وهو يقسو على الإنسان يكون منافقًا في ادعاء الرحمة، وهو في الواقع شر من الحيوان».

فكيف يتفاخرون بأنّهم يُطعِمون القِطط والكِلاب أنفَر الأطعمة وأجود اللحوم.. وبني جنسهم من الفقراء يموتون جوعًا.

لماذا قسى الإنسان على أخيه الإنسان؟

لِماذا تركنا صبيًا صغيرًا، أو امرأةً كَسِيرةً، أو شَيخًا ضعيفًا، يبحث عن طعامه وسط القمامة.



الطائر الميت

خرج عبد الله بن المُبارك أيام الحج، قاصدًا بيت الله الحرام، يحمل معه الزاد والنفقات.

مات معه طائر(دجاجة) فألقاه في المزبلة، انطلق أصحابه وتأخر هو قليلًا، فإذ به يرى ما أذهله،

رأى بيتًا بجوار المزبلة خرجت منه فتاة صغيرة، اتجهت إلى المزبلة فأخذت الطائر الميت، ثمّ لفّته ثمّ أسرعتْ إلى الدّار!

اندهش ابن المبارك من هول

ما رأى!

فانطلق مسرعًا إلى الدّار..

ثمّ قالَ للفتاة:

لِماذا أخذتِ الطائر الميت؟

قالتْ الفتاة: ظُلِم أبِي وقُتِل وأُخِذَ

ماله، وأنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار (ثوب)، وليس لنا قوت إلا ما يُلْقى على هذه المزبلة.

وقد حَلّت لنا الميتة منذ أيام!

لأنّنا أشرفنا على الهلاك فمنذ أيام لم نذُق طعامًا.

وقد أخذتُ المَيتَة لنأكلها أنا

وأخي!

فبكى ابن المبارك بكاءً شديدا..

وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟

قال: ألف دينار.

فقال ابن المبارك: عِد منها عشرين دينارًا تكفينا لنَرجع إلى بلدنا وأعطها الباقي،

فهذا أفضل من حجنا في هذا العام، ثمّ رجع!

فهذه الفتاة المسكينة وجدتْ قلبًا رحيمًا كابن المبارك.. فمن لمساكين اليوم؟

وإنّه لمِن العجب.. أنْ ترى المرء يملأ معدته حتّى تكْتَظ بالطعام، ثمّ يبحث عن مياهٍ غازيةٍ أو مُسهلاتٍ للطعام، كي تهضم ما في معدته، ومِن إخوانه المسلمين مَن يتلوى مِن الجُوع!

جاء رجل إلى ابن عمر.. فقال: « ألا نصنع لك جوارشن؟ (مُسَهِّلات لِهَضم الطعام)

فقال ابن عمر: وأَي شَيْءٍ الْجُوَارِشْنَ؟

قال الرجل: شَيْءٌ إِذَا كَظكَ الطعَامُ فَأَكَلتَ مِنْهُ سَهُلَ عَلَيْكَ مَا تَجِدُ..

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا شَبِعْتُ مُنْذُ أَرْبَعَةِ أَشْهرٍ، وَمَا ذَاكَ أَلا أَكُونَ أَجِدُهُ، وَلَكِنِّي عَهِدْتُ أَقْوَامًا يَجُوعُونَ مَرةً وَيَشْبَعُونَ مَرةً».



وجاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز يقول له: « أَلَا نَصْنَعُ لَكَ دَوَاءً يُشَهِّيكَ الطعَامَ؟ قَالَ عمر: وَمَا أَصْنَعُ بِهِ؟
فَوَاللهِ إِنِّي لَأَدْخُلُ الْمَخْرَجَ فَيُؤْذِينِي مَا يَخْرُجُ مِنِّي...».

قال الشافعي: ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا مرة.

ومما يُدْمِي القلب ويحزنه، أنّك ترى أحدهم يأكل ويأكل حتّى يُصَاب بالتُخمَة وأمراض السمنة، ثمّ يبحث عن أطباء التخسيس، أو يتبع حِمية لإنقاص وزنه، وربّما كان بجِواره فقير أو مسكين لمْ يجِد ما يأكله منذ أيام..

ومنهم مَن يملأ معدته فإذا اكْتَظتْ بالطعام.. شعر بالآلام.. فتجِده عِند الطبيب يشكو آلام بطنه.. وماذا عليه لو تصدق ببعض الفائض من طعامه؟

ورحم الله المنفلوطي إذ يقول - بتصرف-:

« مررت ليلة أمس برجل بائسٍ فقير فرأيتُه واضعًا يده على بطنه كأنما يشكو ألَمًا، فرثّيت لحاله، وسألته ما باله؟ فشكا إليَّ الجوعَ، فَطَيّبْتُ خَاطِره، ثم تركتُه وذهبتُ إلى زيارة صديق لي من الأغنياء المُتْرَفين، فأدْهشني أنّي رأيتُه واضعًا يدَه على بطنه، وأنّه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائسُ الفقير، فسألتُه عما به، فشكا إليَّ البِطْنةَ، فقلت: يا للعجب!

لو أعطى الغنيُّ الفقيرَ ما فضَل عن حاجته من الطعام ما شكا واحدٌ منهما سَقَمًا، ولا ألَمًا، لقد كان جديرًا بالغني أن يتناول من الطعام ما يُشبِع جَوْعته، ويطفئ غلّته، ولكنه كان محبًّا لنفسِه، مغاليًا بها، فضمَّ إلى مائدته ما اختلسه من صَفْحة الفقير، فعاقبه الله على



قسوتِه بالبِطْنة حتى لا يهنأ للظالم ظلمُه، ولا يطيبَ له عيشه، وهكذا يصدُق المثَلُ القائل: بِطنة الغنيِّ انتقامٌ لجوع الفقير».

فمتى يشعر الغني بآلام بالفقير؟

وهل يشعر الشبعان بالجوعان؟

أمْ أنّ الشِّبَع قد أورث القلب قسوة؟.





قسوة الشبع

تقول عائشة -رضي الله عنها-: «إِن أَولَ بَلَاءٍ حَدثَ فِي هَذِه الْأُمة بَعْدَ قَضَاءِ(موت) نَبِيِّهَا صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ: الشِّبَعُ، فَإِن الْقَوْمَ لَما شَبِعَتْ بُطُونُهُمْ سَمِنَتْ أَبْدَانُهُمْ، فَتَصَعبَتْ قُلُوبُهُمْ، وَجَمَحَتْ شَهَوَاتُهُمْ»

قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: «الشِّبَعُ يُقَسِّي الْقَلْبَ..»

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدارَانِي:

«..وَلِكُلِّ شَيْءٍ صَدَأٌ وَصَدَأُ الْقَلْبِ الشِّبَعُ».

وقال عمرو بن قيس: إياكم والبطنة فإنها تقسي القلب.

قال بعض السلف: ما قلَّ طعام امرئ إلا رق قلبه ونديت عيناه.

فكيف يشعر الشبعان بالجوعان وقد

أمتلأ قلبه قسوة؟

كيف يشعر بالجوعى وقد صدأ قلبه كما يصدأ الحديد؟

ماتت المشاعر وتجمدت الأحاسيس!

لا يعرف مرارة الحِرمان إلا مَن ذاقها، كما لا يعرف حرارة النار إلا مَن اكتوى بها، ولا يعرف قدر الألم إلا مَن كابده!

فَمَن بات شبعانًا لا يشعر بآلام الجِياع،



في أكتوبر عام ١٧٨٩م ساءت أحوال الشعب الفرنسي وارتفعت أسعار الخبز فلم يستطع النّاس الحصول على الخبز فاتجهت حشود الشعب الفرنسي الغاضبة نحو قصر« فرساي» حتّى حاصرته، وعلى الرغم من تمترس العسكر حوله... إلا أنّ الشعب الثائر الذي أنهكه الجوع ولم يجد ما يأكله، وقف أمام القصر وهو يهتف بغضب وحماس بعبارات مليئة بالمعاناة والآلام، فلمّا وصل صوت الشعب الغاضب إلى الملكة «ماري أنطوانيت»، وهي في قصرها، سألت من كان حولها من مستشاريها: لماذا يهتف الشعب؟

ولماذا هم غاضبون؟

فقالوا لها: الشعب لا يجد رغيف الخبز.

فقالت: «إذا لم يكن هناك خبزٌ.... دعهم يأكلون كعكًا!».

وهل وجد الشعب الخبز حتّى يأكل كعكًا؟

شبعت الملكة فلم تشعر بالجِياع، وتوفّر لها الطعام والغذاء فظنّت النّاس كلهم كذلك، فلم تشعر بشعبها الجائع.

يقول أحدهم: كان لِي صديق ذو فقرٍ مُدقع، بِالكَاد يجد قوت يومه، جمع مع فقره بطالته؛ فكان لا يعمل.

ذات يومٍ شعر بآلام في المعدة، ذهب إلى الطبيب ليرى ما به، فَحَصَه الطبيب ثمّ قال له: «أنصحك بأنْ تبتعد عن أكل المُكسرات والمُعجنات ونحو ذلك من البقلاوة والحلويات».



كان صديقي الفقير رجلًا ظريفًا ذو نكتة وفكاهة، فقال للدكتور ساخرًا: «دكتور أستطيع أنْ أترك المكسرات والمعجنات ولكن سيصعب علي تمامًا أنْ أترك البقلاوة!».

صَدقَه الطبيب فردّ عليه بجِدّ وشدة: «حاول».

خرج صديقي متعجبًا! يتمتم بهذه الكلمات: «الشبعان ما يدري بالجوعان».

يحكى أنّ سائلًا وقف على باب أحد القصور الكبيرة يطلب الصدقة،

فأطلَّت عليه ربة القصر وسألته: ما حاجتك؟

فقال السائل: سيدتي أنا جائع والجوع يقتلني!

فقالت المرأة: ولماذا لم تأكل حتى الآن؟

ألم يطبخ لكم طباخكم هذا اليوم؟

فهزّ الرجل رأسه متعجبًا ثم قال: ليس لديّ طباخ.

قالت المرأة: اثرد اللحم مع الخبز في إناء ثمّ ضعه على النار حتى ينضج.

نظر الرجل في ذهول ودهشة مخاطبًا نفسه: عن ماذا تتحدث

هذه المرأة وأنا فقير لا أملك شيئًا؟ واكتفى بهز رأسه بالنفي.

فقالت المرأة: إذا لم يكن لديك لحم فضع شيئًا من العسل والسمن على الخبز لتأكله هنيئًا مريئًا.

هز الرجل رأسه متعجبًا من كلامها ثم مضى يتمتم قائلًا: «الشبعان ما يدري بالجوعان».



مرت سيارة إحدى السيدات الموسرات بجوار كوخ حقير،

في هذا الكوخ امرأة شاحبة اللون ناحلة الجسد، حولها أطفالها يرتدون ملابسًا بالية، ويتضورون جوعًا ويبكون، لأنهم لا يجدون ما يأكلون، ويرتجفون من شدة البرد!

فأسرعت السيدة إلى قصرها، وأصدرت أمرها إلى أحد الخدم أن يجمع ما يلزم من الزاد والملابس.. لماذا؟

ليحمله إلى ذلك الكوخ ويعطيه إلى تلك المرأة وصغارها.

دخلت السيدة إلى مخدعها وقد أُشعلت فيه المدفأة، وأحضروا لها ما لذ وطاب من المأكولات، فأكلت هنيئًا مريئًا، وسرى الدفء في جسمها.

وهنا..

أسرعت فقرعت الجرس، فأتى الخادم على الفور..

فقالت للخادم: لا حاجة إلى حمل الزاد والملابس إلى المرأة وصغارها فقد دفئ الجو وسكن الجوع!

عزيزي: لا يشعر بالجوعان إلا جوعان مثله كما لا يشعر بمرارة الدواء إلا من تجرعه.

ولكن، متى يشعر الشبعان بأخيه الجوعان؟

عندما يأتيه رمضان من كل عام ليرسل رسالته إلى كل غني شبعان.



رسالة من رمضان

يُقبِل رمضان في كل عام وكأنّه يُنادي ويقول: «سَأجيع كل مَن ألِفَ الشّبَع، وأَحْرِم المُتْرَفين التّرف، سأجعل الجميع سواسية يعانون الحِرمان ويشتكون الجوع، سأجعل الشبعان يشعر بأخيه الجوعان».

سُئل أحد السلف: « لِمَ شُرِع

الصيام؟

فقال: ليذوق الغني طعم الجوع فلا ينسى الجائع ».

تولى يوسف عليه السلام خزائن مصر ومنع نفسه من الشّبع،

ولمّا سُئل عليه السلام: لِمَ تجوع وأنت على خزائن الأرض؟

فقال: أخاف أنْ أشبع فأنسى

الجائع؟.

أخي الكريم: عِندما تُمسك في نهار رمضان عن الطعام والشراب فإنّك تُعاني آلام الجوع والعطش؛ فتعرف حينها مرارة الحِرمان، وتعرف كيف يقاسي الفقير والمسكين آلام الجوع.

وفرق بينك وبينه..

بعد سويعاتٍ قليلةٍ من الصيام، أنت تأكل ما لذّ وطاب، وهو تمر عليه الأيام تلو الأيام لا يجد ما يسد جوعه..



وعندما تعرف كم يعاني الفقير والمسكين من آلام الجوع؛

تأخذك الرأفة والرحمة فتتصدق

عليه ولا تنساه!

لذلك «كان النبي صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ النَّاسِ، وكانَ أجوَدُ ما يَكونُ في رَمَضانَ»؛ (صحيح البخاري).

النبي صلى الله عليه وسلم يشعر بالفقراء والمساكين وما يعانونه لذا كان يسارع في التصدق عليهم، ويعلمنا كيف نشعر بهم ونتصدق عليهم.

ثم يُختَمَ رمضان بزكاة الفطر، وكأنّ رب العزة يقول لنا، هل استوعبتم الدرس من رمضان؟

هل فهمتم رسالة رمضان؟

فهيا ابسطوا أيديكم لإخوانكم.

وهيا سارعوا في إطعام الأفواه الجائعة.

فإنّنا إذا أعطينا الفقير والمسكين؛ فإنّه يأكل كما نأكل ويشبع كما نشبع،

فلا نجد فقيرًا ولا مسكينًا يصرخ بيننا ويقول: أنا جوعان!

أنا جوعان

في أحد مخيمات اللاجئين وقف طفل صغير تبدو عليه آثار الضعف والهُزال، جسد نحيل وكأن الزمان يقتطع كل يوم منه جزءًا، وجه شاحب، قد رُسِمت عليه آلام وأحزان الزمان، يحاول جاهدًا أن يقيم صلبه، كلما أراد أن يقف سقط أرضًا، استجمع قواه.. ثم وقف صارخًا: أنا جوعان.. أنا جوعان.. والله

جوعان!!

خرجت كلماته لتكشف زيفنا وكذبنا.

أنا جوعان!

خرجت لتكشف القِناع عن وجوهنا،

وتقول لنا:

أنتم كاذبون!... ألم يقل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]؟! ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ»؛ (البخاري)، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: «مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم، وتَرَاحُمِهم، وتعاطُفِهِمْ. مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تداعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى»؛ (صحيح الجامع).

فأين نحن من التواد والتعاطف والتراحم؟

إن الفيلة إذا مرض أحدهم بكوا من أجله، وإذا مات أحدهم وقفوا بجواره لفترات طويلة لا يأكلون ويذرفون الدمع ويبكون، فأين نحن من عطف الحيوان ورحمته؟

أنا جوعان..!!

خرجت لتقول لنا:

إن قلوبكم كان بها رحمة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أقول لك:

عذرًا يا بني.. إننا مشغولون، مشغولون بملء بطوننا،

مشغولون باللاعبين واللاعبات، والمطربين والمطربات.

عذرًا يا بني!

إن ملياراتنا ليست لك، إنها لكرة القدم.

إنها ليست لك، إنها لألبوم الأغاني.

إنها ليست لك، إنها للمسلسلات والأفلام..

إنها ليست لك، إنها للبارات والحانات.

أنا جوعان..!!

خرجت من قلب منكسر، ومعدة خاوية، وجسد أنهكه الهُزال،

خرجت لتكون شهادة وفاة لقلوبنا، فلقد ماتت حقًا!

أنا جوعان..!!

خرجت لعلها تصادف قلباً ما زالت تدب فيه الحياة،

أو قلبًا رحيمًا يضع قطعة خبز في فاه؛ لعله يبقي على قيد الحياة.

أنا جوعان.. أنا جوعان.. والله جوعان!!

خرجت لتَستَنهِض عزة كل مسلم، وأخوة كل مؤمن!

ولا أدري: كيف نمنع الطعام عن إخواننا ونتلذذ به والجوع يقتلهم قتلا؟

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«ثَلاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يومَ القِيامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ كانَ له فَضْلُ ماءٍ بالطَّرِيقِ، فَمَنَعَهُ مِنَ ابْنِ السَّبِيلِ.......»؛ (صحيح البخاري).

ودخلت النار امرأة في هرة حبستها فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض، فكيف ببني آدم؟! وكيف بمسلم له حرمة وولاء وأخوة ونصرة؟!

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى:« فإذا وجدنا إنسانًا جائعًا وجب علينا جميعًا أن نطعمه وإطعامه فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين، فإن لم يقم به أحد تعين على من علم بحاله أن يطعمه وكذلك أيضًا كسوة العاري وهو فرض كفاية»؛ (شرح رياض الصالحين).

أيها المسلمون: ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟

لقد رأت بغي من البغايا كلبًا يقف بجوار بئر وقد أخرج لسانه يلهث من العطش؛ فوقعت الرحمة في قلبها ورقت لحاله؛ فنزعت خفها وربطته بغطاء رأسها؛ لتجلب الماء من البئر وتسقي الكلب؛ فشكر الله صنيعها فغفر لها، وغفر الله لرجل سقى كلبًا يلهث من

العطش، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بينَما رجلٌ يمشي بِطريقٍ اشتَدَّ بهِ العَطشُ، فوجدَ بئرًا فنزلَ فيها، فشرِبَ ثمَّ خرجَ، فإذا كلبٌ يلهَثُ، يأكُلُ الثرى من العَطشِ!!

فقال الرَّجُلُ: لقد بلغَ هذا الكلبُ من العَطشِ مِثلَ الَّذي كان بلغَني، فنزلَ البِئرَ فملأَ خُفَّهُ ثمَّ أمسكَه بفيهِ فسَقَى الكلبَ فشكرَ اللهُ لهُ، فغفَرَ لهُ»، قالوا: يا رسولَ اللهِ وإنَّ لنا في البهائمِ أجرًا؟ قال: في كُلِّ كَبِدٍ رطبَةٍ أجرٌ»، (البخاري ومسلم).

فإذا كان الأجر العظيم في إطعام الطير والحيوان.. فكيف بمن أطعم إنسانًا؟

وكيف بمن أطعم أفواهًا جائعة؟

وكيف بمن أنقذ نفسًا من الموت بكسرة خبز؟

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]

بكسرة خبز.. يُكتب لك الأجر العظيم..

وبشق تمرة تقي نفسك من النار، بل وتدخل جنات عرضها السموات والأرض..

سبع تمرات:

يقول أحد العاملين بمؤسسة خيرية: (في إحدى ليالي رمضان، والله! لقد تعرضت لموقف، لم أتوقع أن أرى مثله، رغم عشرات الأسر التي مرت عليّ من الفقراء والمحتاجين.

جاءني رجل من الفقراء، تظهر حالته على ملامح وجهه وملابسه الرثة، تبدو آثار الحزن العميق في عينيه..

قال ليّ الرجل:

يا أخي...

أنا لا أريد منك مالًا، ولا أريد منك مسكنًا..

هذه طلبات كبيرة، فلن أكلف عليكم،

ولكن..

نحن في شهر صيام..

فأطلب منك، ولا أريد أن يعرفني أحد..

فقط أريد منك..

٧ تمرات.

نحن في المنزل سبعة، أنا وزوجتي وأولادي، فقط نريد سبع تمرات نفطر عليها غدًا...

رحم الله والداك!

فلمّا سمعت هذا الكلام.. والله، كأن لم يُخلق لي لسان، دُهشت وذُهلت.. كيف يكون في المسلمين هذا؟؟

ولا أتخيل من لا يجد ما يفطر عليه، وكيف يكون بيننا مثل هذا؟ يريد فقط سبع تمرات! تأكدت من حالته، وأعطيته ما يسده ويكفي جوعته وجوعة أطفاله الصغار، وقد امتلأت لأجله حزنًا وألَمًا)، قلت: هل ماتت الإنسانية؟ هل اصبح الناس غافلين عن إخوانهم إلى هذا الحد؟ هل غفلوا عن أجر إفطار الصائمين أم زهدوا فيه واستغنوا عن

ذلك؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَن فطَّرَ صائمًا كانَ لَهُ مثلُ أجرِهِ، غيرَ أنَّهُ لا ينقُصُ من أجرِ الصَّائمِ شيئًا»؛ (صحيح الترمذي).

عندما يكون بين المسلمين من لم يجد ما يفطر عليه، فهذا يدعوك أن تتساءل: هل صرنا أشبه بالأصنام؟

أم أن قلوبنا قد ماتت؟.

لحم.. يا أمي:

اتصل بي أحد الأصدقاء.. وقال لي: (يا فلان أنت مدعو لوليمة العرس اليوم؛ فأنا أزوج ابني).

شكرته على دعوته، وانتهى الحديث بيننا على حضور الوليمة إن شاء الله.

وحقيقة الأمر.. أنني قبلت تلك الدعوة على مضض!

فأنا لا أريد الذهاب.. لماذا؟

لأن هذه الولائم يقع فيها كثير من المنكرات ولا تستطيع إنكارها، وما دفعني للذهاب إلا قول النبي صلى الله عليه وسلم: - «أَجِيبوا هذِه الدَّعْوَةَ إذا دُعِيتُمْ لها»؛ (صحيح البخاري).

تحاملت على نفسي وذهبت إلى صاحبي، جلس الحضور جميعًا يتبادلون أطراف الحديث، وكانوا قلة قليلة، جاء وقت الطعام.. دخلنا إلى المكان المخصص لتناول الطعام، فإذ بي أرى المائدة وكأنها قافلة إغاثة أعدت لمنكوبين، وإن شئت فقل، أعدت لأسود جياع.. لم يذوقوا الطعام منذ أيام! دُهشت مما رأيت، ونظرت حولي إلى الحضور؛ لعلهم أكثر مما أظن، ولكن.. هم قلة قليلة كما أعلم.. فقلت في نفسي: لعل بعضهم لم يأتِ بعد.. ولكن..

خاب ظني؛ فلم يحضر أحد، تساءلت في نفسي: هل يملك أحدنا معدة أكثر من بضع سنتيمترات؟ والجواب: لا، فقلت: لعل صاحب الوليمة ظن الحضور يمتلكون معدة تقاس بالأمتار، أو..

ظننا سنملأ المعدة لتكفينا عدة أيام! فرغ الجميع من الأكل، وبقي على المائدة أكثر من ثمانين بالمائة من الطعام؟ قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فلماذا هذا الإسراف والتبذير؟؟ وما مصير هذا الطعام الذي تبقى؟ احتاروا في الطعام المتبقي.. ماذا يصنعون به؟

بالطبع، كلنا يعرف ماذا يصنعون به؟ فمصيره إلى صناديق القمامة.. فالقطط والكلاب أولى به من الفقراء والمساكين! دققت النظر في الحضور.. فلم أرَ فيهم فقيرًا واحدًا أو مسكينًا، فقلت: سبحان الله! «شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الوَلِيمَةِ، يُدْعَى لَهَا الأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الفُقَرَاءُ»، (صحيح البخاري).

لماذا لم يدع صاحب الوليمة الفقراء والمساكين؟ لا أدري مَنْ أحوج إلى هذا الطعام: الأغنياء أم الفقراء؟

ولماذا لا يرسل الطعام الفائض إلى فقير جوعان؟ احتاروا.. ماذا يصنعون بهذا الطعام؟

نظرت إلى الطعام، فوجدت أصنافًا من اللحوم لم تمتد إليها يد! فقلت: حسنًا.. سآخذ هذه الأصناف حينها..

اتجهت إلي أنظارهم جميعًا.. وكأنني ارتكبت جرمًا عظيمًا

أو أتيت بما لم يأتِ به أحد من العالمين! يا ويلي! لماذا يرمقونني هكذا؟!

لماذا ينظرون إليَّ بحدة؟ فقلت في نفسي: لا تبالِ بنظراتهم، أخذت اللحم معي وانطلقت إلى أحد الأحياء الفقيرة، سألت أحد المارة: ألا تعرف بيتًا فقيرًا في هذا الحي؟ قال: كل أهل الحي فقراء، فلم تزدني كلماته إلا غصة في حلقي، تذكرت طعام الوليمة وما يلقى منه في القمامة، وهذه أحياء فقيرة بكاملها! ذهبت إلى أحد البيوت وطرقت بابه، خرجت امرأة محتشمة بحجابها، أعطيتها الطعام؛ فدعت لي وشكرتني، ولما هممت بالانصراف؛ إذ بي أسمع صوت طفلة صغيرة، تصيح وتقول: لحم، يا أمي! لحم يا أمي! وكأنها لم تره منذ زمن بعيد، اخترقت كلماتها قلبي؛ لحطمت ما به من قسوة وسال الدمع من عيني، فأنا من رأى المشهدين: طعام يلقى في القمامة منذ دقائق.. وفقراء لم يأكلوا اللحم منذ زمن بعيد.

عزيزي القارئ: هل تعلم أن من الفقراء مَن لا يأكل اللحم إلا في الأعياد والمناسبات.. عندما يتصدق عليهم أحد بقطعة لحم؟

هل تعلم أن: من الفقراء مَن يشتري عظام الدجاج (هيكل الدجاجة) ليطبخه لأولاده؟

هل تعلم أن: بعض الفقراء يقف بجوار بائع اللحوم (الجزار) ليلتقط بعض الفتات المتناثر على الأرض، أو لعله يظفر بعظمة من العظام؛ ليصنع بها مرقًا لأولاده.

ألم تسمع بقصة تلك المرأة والدكتور الجامعي..

(جلس الدكتور مع صديقه في مكتبه، وكان في الجهة المقابلة للمكتب جزار.

نظر الدكتور من النافذة فرأى هذا الجزار، تقف بجواره عجوز قد تجاوزت السبعين من عمرها، وكأنها هيكل عظمي وقد احدودب ظهرها.





فإذا وقعت عظمة أو قطعة دهن أو جلد من الجزار، أخذتها بسرعة ووضعتها في متاعها!

ذُهل الدكتور مما رأى.. فخرج مسرعًا من مكتب صديقه..

اتجه إلى هذه العجوز.. فسألها قائلًا:

ماذا تصنعين يا أماه؟؟

فبكت وعلا نحيبها!!

الدكتور: لماذا تبكين يا أماه؟.. هل أخطأت في سؤالي؟

قالت: يا بني، إن لي سبعة من البنات الأيتام لم يذوقوا اللحم منذ ستة أشهر!

فأسرع الدكتور قائلًا: كم يكفيكِ من اللحم يا أماه؟؟

قالت: نصف كيلو.

فصعق مما سمع، وأخذ يحدث نفسه.. نصف كيلو ليأكله سبع

بنات!

ثم قال للجزار:

أعطها أثنين كيلو من اللحم، وهكذا تصنع معها في كل اسبوع لمدة عام كامل، وأعطاه ثمن اللحم طوال

العام).

فأين من يتألم لحال هؤلاء؟



وأين من يحنو عليهم؟

فأين أنت يا ابن الخطاب؟؟

عندما ذبحوا الجزور، أخذوا من لحمه أحسنه وأطيبه ليعطوه له.. فقال: لمن هذا؟

قالوا: لك يا أمير المؤمنين.

فقال: بئس الحاكم أنا إن أكلت أطيبها وأحسنها دون الناس.

وعندما وقعت المجاعة في عام الرمادة، كان لا يشبع من طعام.. فلما سألوه قال: لا أشبع حتى يشبع أطفال المسلمين.

وأين أنت يا عمر بن عبد العزيز؟

يا من فاض المال في عهدك.. وشبع الجميع.. ونثرت الغلال على رؤوس الجبال.. ليأكلها الطير.. حتى لا يقال جاع أحد في عهد عمر!

تعال يا عمر.. لتنظر إلى فقراء المسلمين وهم جوعى.. بعدما بخل عليهم الأغنياء.

ماذا كنت صانع يا عمر.. لو سمعت هذه البنت وهي تصيح: لحم..

يا أمي!!..لحم.. يا أمي!!



عمر والأيتام

في هدأة الليل وفي إحدى ليالي الشتاء، وتحت زمهرير قارس، ولا صوت يعلو أصوات الرياح، خرج أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» ومعه خادمه « أسلم»، يتفقد أحوال الناس، وهكذا يكون الحاكم العادل!

يتفقد شعبه؛ ليطعم جائعهم، ويكسو عاريهم، ويضمد جراحهم، ويزيل همومهم.

ذهب عمر إلى أطراف المدينة، فإذ به يرى نارًا في الصحراء تتوهج في ظلمة الليل..

اندهش أمير المؤمنين!

ما هذه النار؟

ومن أوقدها؟

ومن يجلس في هذا البرد الشديد؟

بل من يجلس في هذا الظلام

الحالك؟

نظر عمر إلى خادمه ثم قال:

يا أسلم!.

هؤلاء ركب قد قصر بهم الليل، انطلق بنا إليهم،

وصل عمر إلى مكان النار،

فإذ بامرأة وحولها صبيان صغار.

يا ألله!

ماذا تصنع المرأة في هذا التوقيت وفي هذا الطقس الشديد؟

ازداد عمر حيرة ودهشة..

ولكنه..

رأى قِدرًا على النار، وصبيانًا صغارًا يبكون بشدة، تكاد صرخاتهم تُسمع الأصم.

إنها صرخات أطفال في هدأة ليل في صحراء!

ظن عمر كما ظننت أنا وأنت أنها تصنع طعامًا لصغارها.. فماذا كانت تصنع المرأة؟

سألها عمر -هي لا تعرفه-:

ما هذه النار؟ وما هذا القدر؟

قالت: هذا القدر به ماء أسكِت به

الصبية حتى يناموا؟

عمر: لماذا يا أمة الله؟

قالت: صبياني جوعى، يصرخون من شدة الجوع ولا أجد ما أطعمهم؛ فوضعتُ القدر على النار ليتوهموا أني أعد لهم طعامًا، إن الجوع والبرد منعا أولادي النوم.

(الله. الله!..بيننا وبين عمر!)

فارتعد عمر لذلك!

ثم قال: رحمك الله!. ما يدري عمر بكم.

قالت: يتولى أمرنا ويغفل عنا.

فذرفت عينا عمر الدمع أنهارا.

ثم عاد مسرعًا إلى بيت المال، لحمل الدقيق والشحم على ظهره.. وخادمه يتعجب، ويقول:

يا أمير المؤمنين، أحمله أنا عنك،

فيقول عمر: لا أم لك!، هل تحمل أوزاري عني يوم القيامة؟

ثم أعطى الدقيق والشحم للمرأة؛

فأطعمت صبيانها، فما تركهم عمر إلا وهم يصطرعون ويضحكون،

ثم انصرف وهو يبكي، ويقول: يا أسلم، الجوع الذي أسهرهم

وأبكاهم!

عمر يتفقد الأرامل والمساكين فمن لأراملنا؟

قال صلى الله عليه وسلم: « السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ والمِسْكِينِ كالْمُجاهِدِ في سَبيلِ اللَّهِ، أوْ كالَّذِي يَصُومُ النَّهارَ ويقومُ اللَّيْلَ»؛ (صحيح البخاري).

عمر يسال عن الجوعى، ويبكي لحالهم، لأنه يحمل بين جنبيه رحمة ورأفة، لم يحمل قلبًا مات على قيد الحياة.

ولا تعجب إن قلت لك: إن رؤية الجوعان يتألم تفتت الأكباد؛ بل تفتت الصخور الصماء، فلقد رق لها قلب الكافر« حاتم الطائي» فما بالنا لا ترق قلوبنا؟

فهيا نرى ماذا صنع حاتم مع الجياع؟

حاتم والجياع

في سنة جدباء لا قطر فيها ولا ماء، اقشعرت فيها الأرض واغبرت فيها السماء، وضنت المراضع عن أولادها؛ فما تبض بقطرة لبن وأيقن الناس بالهلاك.

وفي ليلة طويلة شديدة الظلمة، إذ بحاتم وزوجته قد جافاهما النوم؛ من شدة الجوع، فكيف يمر النوم بعيون بطونها خاوية؟! بل، كيف يمر النوم بعيون تبكي صغارها من شدة الجوع؟! فأبناء حاتم الصغار: (عبدالله، وعدي، وسفانه)، يصرخون!؛ فالجوع كاد يقتلهم!

جلس حاتم وزوجته والحزن كاد

يأكل قلبيهما، فلا يجدان ما يسد جوع الصغار... فماذا صنعا؟

أخذ حاتم الولدين (عبدالله، وعدي) وأخذت زوجته البنت (سفانه) وأخذا يعلِّلانهم بالحديث؛ حتى يناموا، فما نام الأبناء إلا في هدأة الليل، ولم يتبق إلا حاتم وزوجته في جوع قاتل.



فأخذ حاتم يُعلل زوجته بالحديث، حتى تنام، أشفقت عليه زوجته، فتظاهرت بالنوم، ظن حاتم أنها نامت وبقي هو قد جافاه النوم، وفي سكون الليل، إذ به يسمع صوتًا.. يقول: يا أبا عدي.

فاندهش حاتم!، من يأتينا في هذا الوقت من الليل؟

فقال حاتم: من هذا؟

فإذ هي امرأة.

فقالت: يا أبا عدي، أتيتك من عند أبنائي وهم يتعاوون كالذئاب

جوعًا!

فقال لها: أحضري أولادكِ.. فوالله، لأشبِعنَّهم.

فعادت المرأة مسرعة إلى أولادها...

تقول زوجة حاتم: فرفعت رأسي، وقلت له: يا حاتم، بماذا تُشبع أطفالها؟؟؟

والله، لقد نام أولادك يبكون من شدة

الجوع!

فقال: والله، لأشبعنّك واشبعنّ أولادكِ وأولادها.

أحضرت المرأة صِغارها، نهض حاتم قائمًا وأخذ السكين بيده، وعمد إلى فرسه فذبحه!

ثم أجج نارًا، ودفع إلى المرأة شفرة... وقال لها: قطعي، واشوي، وكُلي، وأطعمي أولادكِ.



فأكلت المرأة وأشبعت صغارها.

تقول زوجته: فأيقظت أولادي، وأكلت وأطعمتهم.

فقال حاتم: والله إنّ هذا لهو اللؤم، تأكلون وأهل الحي حالهم كحالكم.

ثم أتى الحي بيتًا بيتًا.. يقول لهم: «انهضوا إلى النار»، فاجتمعوا حول الفرس، فوالله، ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير إلا العظم والحافر، وتقنع حاتم بكسائه وجلس ناحية، ووالله ما ذاقها حاتم وإنّه لأشدهم جوعًا!

لقد تألم حاتم - كافر - عندما رأى الجوعى فما بالنا لا نتألم؟

لقد جاد لهم بما عنده؟

فما بالنا لا نجود؟

تفقد حاتم جيرانه الجوعى فهل تفقدنا جيراننا؟

هل سألت عن حال جارك؟

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا أبا ذَرٍّ إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فأَكْثِرْ ماءَها، وتَعاهَدْ جِيرانَكَ».

تخيَّل أخي الحبيب أن مسلمًا لديه قطعة لحم صغيرة، يؤثر بها على نفسه فيكثر الماء؛ حتى يكثر مرقها، ويحرم نفسه طعم دسمها لكثرة ما بها من ماء؛ ليطعم جيرانه، وماذا لو أن كل الجيران أخذوا بهذه الوصية؟

سترى ما يسرك، ترى منظرًا عجيبًا، هذا يرسل لك بمرقة، وذاك بهدية، وأنت ترسل له نوعا آخر من الطعام، والجار الذي بيمينك يناول الذي بيساره هدية، والعكس، فهل يكون بيننا جائع؟

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «يا نِساءَ المُسْلِماتِ، لا تَحْقِرَنَّ جارَةٌ لِجارَتِها، ولو فِرْسِنَ شاةٍ»؛ (صحيح مسلم).

تفقد أحوال جارك، فربما كان جارك يبيت يتألم من شدة الجوع.. وأنت لا تدري..

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما آمن بي من بات شبعانَ وجارُه جائعٌ إلى جنبِه وهو يعلم به»؛ (صحيح الجامع).

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليسَ المؤمنُ الَّذي يشبَعُ وجارُهُ جائعٌ إلى جنبِهِ»؛ (السلسلة الصحيحة).

يقول الألباني في السلسلة الصحيحة:

«وفي الحديث دليل واضح على أنه يَحرم على الجار الغني أن يدَع جيرانه جائعين، فيجب عليه أن يقدِّم إليهم ما يدفعون به الجوع، وكذلك ما يكتسون به إن كانوا عُراةً، ونحو ذلك من الضروريات».

إن الجوع إذا تملك معدة وأحكم سيطرته عليها، جعل صاحبها يفقد صوابه؛ بل يفقد عقله فيهذي كالمجنون، ويرتكب الحماقات التي لم تخطر ببال، فربما من شدة جوعه باع أبناءه فلذات أكباده.

باع ابنته

هل يصل الحال بالجائع أن يبيع أبناءه؟

هل يستطيع أن يبيع فلذة كبده بكسرة خبز؟

العقل والقلب يصرخان ويقولان: لا، لا، لا يحدث هذا، ولا يكون أبدًا، والواقع يقول: كذبتما لقد حدث هذا ولديَّ من الشواهد الكثير، ومن أبرز الشواهد ما سمعته الآن، (وأنا أكتب) عبر وسائل الإعلام ويتداول عبر وسائل التواصل الاجتماعي أن رجلًا مصري يعرض ابنه للبيع كما تعرض قطع الأثاث في المعارض أو الملابس في المحلات أو الخضروات والفواكه في الأسواق، ابنه البالغ من العمر خمس سنوات، يعرضه عبر صفحته الشخصية على «فيسبوك»، وقد ذكر بجوار صورة ابنه مواصفاته؛ ليرغب الزَّبُونُ في شرائه، وتم القبض على الوالد من الشرطة المصرية، ولما سألوه: لماذا تبيع ولدك؟ رد هو وزوجته فقالا: «من الجوع والفقر»، فما رأيك أيها القلب؟ وما رأيك أيها العقل؟ هل ما زلتما تصران على رأيكما؟ إن كان الجواب: نعم.

أقول لكما: إن في جعبتي الكثير من هذا القصص، وما اخترت إلا واحدة من هذا النوع لأسردها، وما ذاك إلا رحمة بكما؛ لأني أخشى عليك أيها القلب أن تُذبح بلا سكين، فلا نجد لك طبيبًا، وأخشى عليك أيها العقل أن تطير فلا ترجع أبدًا، يقول الراوي: (رأيت رجلًا من جيراننا يومًا بعد صلاة العصر يقف عند صندوق القمامة ثم مدَّ يده وأخذ شيئًا وأدخله بيته، قال: ففزعت لِما رأيت بجاري وقلت لعله محتاج وأنا لا أعلم، فعزمت على زيارته والتعرف على حاله وسؤاله عما رأيت منه، ولما زرته رحب بي ورأيت منه حالًا حسنة وغنى ظاهرًا فسألته عما شاهدته، فقال: لقد رأيت طعامًا في القمامة صالحًا للأكل

فتأثرت لرميه وآثرت أن آخذه وأكرمه عن أن يوضع في هذا المكان المهين، ثم قال: لقد مر بي من الجوع شيء عظيم لا طاقة لأحد به وعاهدت الله على ألا أرى طعامًا إلا أكرمته، وأن لا أترفع على طعام مهما كان حاله، واسمع قصتي:

مرت بي سنة وأنا بمكة أصابني فيها فقر عظيم ولم يكن عندي حينها عمل وكانت لي زوجة وابنة، وكنت أخرج من الصباح أبحث عمن يؤجرني أو يستعملني أو يعطيني شيئًا فلا أجد، فآوي إلى بيتي وليس بيدي شيء، فأجد زوجتي وابنتي ينتظران قدومي لعهما يجدان بيدي شيئًا يرفع عنهما ألم الجوع، ومرت بنا ثلاثة أيام لم يدخل أجوافنا شيء، ففكرت في أمري فانقدح في ذهني أمر لا يخطر ببال حر البتةَ، ثم لم ألبث أن فاتحت به زوجتي، قلت لها: حتى متى نبقى ونحن ننتظر الموت!، والجوع قد أقضّ مضاجعنا وأرهق أبداننا وهذه ابنتنا أقلّ منا صبرًا، فإن رأيت أن تزينيها وتمشطيها وأذهب بها إلى سوق العبيد فأبيعها، فأجد بثمنها طعامًا وتجد قومًا يطعمونها، فتبقى حية ونسلم جميعًا من الموت الذي بدأ يحاصرنا، فأنكرت عليَّ وخوفتني بالله، فما زلت بها أجادلها حتى رضخت ورضيت، وجهزتها لي فأخذتها وذهبت بها إلى السوق، فمرَّ بنا رجل من البادية، فنظر إليها فأعجبته واسترخص ثمنها، ثم ساومني عليها فتراضينا على اثني عشر ريالًا من الفضة.

عندما أخذت الدراهم عدوت مسرعًا إلى سوق التمور أشتري زنبيلًا من التمر نملأ به بطوننا، فاشتريت زنبيلًا بريالين، وطلبت من الحمّال أن يتبعني به فليس بي طاقة على حمله من شدة الجهد وألم الجوع، فسبقته، فلما وصلت بيتي التفت فلم أجد الحمّال خلفي، فرجعت أبحث عنه فلم أجده، فقلت: أرجع إلى السوق فأشتري بدله آخر وأبحث عن الحمّال في وقت سعة. فلما أردّتُ أن أنقد ثمن التمر لم أجد في جيبي شيئًا، فأصابني من



الهمّ والغمّ ما لو نزل بجبل لهدِّهُ، فعزمت على الذهاب للحرم، فلما دخلت المطاف وجدت البدوي يطوف ومعه ابنتي، فوقع في نفسي أن أتربص به، حتى إذا خرج من مكة عدوت عليه في إحدى شعابها فقتلته وخلّصتُ ابنتي، فبينما أنا أطوف إذ رمقني ووقعت عينه على عيني، فلما انتهى صلى خلف المقام وصليت، ثم التفت إليّ ودعاني فقال: من هذه البنت التي بعتنيها؟ قلت: جارية عندي! قال: بل هي ابنتك، سألتها فقالت: هذا أبي. فما حملك على ما صنعت؟ قلت: والله، لقد مرّ بي وبها وبأُمّها ثلاثة أيامٍ لم نذق فيها طعامًا وقد خشينا الموت، فقلت أبيعها لعل الله أن ينقذنا بها وينقذها بك. ثم أخبرته بخبر ثمنها وأني فقدته ولم أنتفع منه بشيء، قال: خذ ابنتك ولا تعد لمثل هذا، وأخرج صرة فيها ثلاثون ريالًا فقال: هذه بيني وبينك، فقسمها نصفين ثم دفع إلي نصيبي، ففرحت فرحًا عظيمًا وشكرته ودعوت الله له وحمدت الله على فضله، وأخذت ابنتي وذهبت إلى سوق التمر لأشتري تمرًا لي ولابنتي وزوجتي، ففوجئت بالحمّال الذي حمل التمر لي، فصرخت فيه: أين كنت؟ فقال: يا عم لقد أسرعتَ في مسيرك حتى عَمِيَ عليَّ طريقك وطفقت أبحث عنك، فلم أجدك فرجعت إلى السوق لعليّ أعثر عليك، والحمد لله أني وجدتك.

قال: فقلت له: اِلحق بي، فلما دخلنا البيت وأراد أن يفرغ التمر في إناء عندنا إذا بالدراهم العشرة التي فقدتها في أسفل الزنبيل. فحمدت الله وشكرته على فضله وعلمت أن الفرج يأتي بعد الكرب وأن مع العسر يسرًا.

وعاهدتُّ ربي أن أشكر نعمته، وأن أُجِلَّ رزقه، وأن لا أحقر طعامًا، أو أرميه، أو أدعه منبوذًا مع القمامة والقاذورات والله المستعان،

فهذا خبري فهل أُلام على ما فعلت؟!!).





الكنز المُهان

قصة الرجل بائع ابنته وحفاظه على الطعام، جعلني أعود بذاكرتي إلى زمن بعيد، وأنتقي من صفحاتها، فعندما كنت طفلًا صغيرًا، كنت أرى أمي - حفظها الله - إذا رأت طعامًا ملقًى على الأرض أسرعت في التقاطه، وأماطت عنه الأذى، وقالت: «اللهم أدِمْها نعمةً، واحفظْها من الزوال»، وكانت تأمرني بذلك، وكنت أفعل؛ تقليدًا لا فهمًا، وكلما سألتها عن سبب ذلك، قالت: «يا بني، من حمده زاده، ومن كفره كثرت أنكاده»، فكنت لا أفهم معنى كلماتها، وكنت أرى رجال قريتي إذا رأى أحدهم طعامًا على الأرض توقف عن السير إن كان مترجلًا، ونزل عن دابته إن كان راكبًا؛ ليلتقط الطعام من على الأرض، ويميط عنه الأذى، فيأخذه إن كان صالحًا، ويضعه على جانب الطريق إن كان فاسدًا؛ رجاء أن يجده حيوان (قط، كلب، طير،... إلخ)؛ فيأكله.

كنت أسأل نفسي كثيرًا: لماذا يصنعون هذا مع الطعام؟ ولماذا يعظمونه كل هذا التعظيم؟ ولماذا لا يرضَون له الإهانة؟ هل ما يصنعونه مع الطعام له سند شرعي؟؟

تمر الأيام، ويزداد عمري، وكلما زاد عمري، زاد إلحاح السؤال عليَّ، حتى قررت أن أجد إجابةً لسؤالي، فوجدت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا سقطت لقمة أحدكم فليُمط عنها الأذى وليأكلها»؛ (صحيح مسلم).

يا ألله! كم كانت أمي ورجال قريتي البسطاء أفقه مني!، كم كانوا أفقه من عالِمٍ أهان غذاءه، ثم صرخ من الجوع!، فعلمت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سقطت منه اللقمة، أماط عنها الأذى وأكلها.

ولعلك تلاحظ أن أيام النبي لم تكن عندهم الفُرُش كالتي لدينا، فربما وقعت اللقمة على التراب، فيميط النبي صلى الله عليه وسلم عنها الأذى ويأكلها، فمن منا يصنع ذلك الآن؟ إن أحدنا إذا سقطت منه اللقمة، لم يهتم بها ولم ينظر إليها، فلماذا ينظر إليها؟ إن المائدة عليها أصناف وألوان من الطعام، وإن أوانيَ الطهي ممتلئة بالأطعمة، فلماذا يلتقط إذًا اللقمة الساقطة؟ إنه يمتلك الطعام الكثير.

عذرًا يا عزيزي: إن من احتقر قليل الطعام احتقر كثيره، ومن أهان قليله أهان كثيرة، إن حبات الأرز المتساقطة على مائدتك، أو فتات الخبز المتناثر عليها، أو قليل الحساء الذي تحتقره، أو حبات التمر الملقاة على الأرض - يتمناها غيرك من المحاصرين والمشردين، والفقراء والمساكين؛ ليسد بها جوعه، أو يُسكِت بها بكاء أطفاله، إنها عنده أغلى من كنوز الأرض، إنها عنده أغلى من الذهب والماس، فهل يسد الذهب أو الماس جوعته إذا غاب الطعام؟ أدعوك الآن أن تغمض عينيك وتسرح بخيالك وتتصور أنك بت ليلتك، ثم استيقظت في الصباح، فلم تجد طعامًا في منزلك، فذهبت إلى الأسواق فلم تجد طعامًا تشتريه، وأنت الآن جوعان، ماذا تصنع وقتها؟ وكم تساوي اللقمة الساقطة عندك وقتها؟ وأيهما أغلى اللقمة الساقطة أم أطنان الذهب؟ لقد دهشت وزادت دهشتي، عندما علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم، مرَّ في الطريق ذات مرة، فرأى تمرةً ساقطةً، ولا يعلم مصدرها ولا ممن سقطت، وكان لا يأكل الصدقة، فقال: « لولا أن تكون من صدقة لأكلتُها»؛ (صحيح البخاري).

فالنبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الحفاظ على الطعام وعدم إهانته، وتعظيمه وإن كان قليلًا، حتى يزيدنا الله من نِعَمِهِ ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فهل شكرنا نعمة الطعام والشراب أو أهنَّاها في الوحل والتراب؟

هناك من يسرف في إعداد الطعام، ويصنع من الطعام أضعاف حاجته، ثم يلقي ما تبقى في القُمامة: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فلماذا يصنعون من الطعام أكثر مما يحتاجون؟ وإذا صُنع الطعام وكان أكثر مما يحتاج، وأصبح لديه فائض، فلماذا يلقيه في القمامة؟ ألَا يستطيع أن يحافظ عليه لوجبة غذاء أخرى؟ ألَا يستطيع أن يضع الصالح من الطعام في أطباق نظيفة، أو علب بلاستيكية، ثم يعطيها الفقراء والمساكين، أو العمال والخدم؟ إن أحدنا إذا جاءه ضيف، صنع له من الطعام أضعاف أضعاف ما يأكله الضيف، ثم يصرخ ماذا أصنع بالطعام الباقي؟ يلقيه أيضًا بالقمامة.

وأما فائض الطعام في الولائم والاحتفالات والأفراح، فيكفي أن أخبرك أن الفائض من أحد الاحتفالات عجز الناس عن حمله؛ فحملوه بالجرافات إلى أكوام القمامة.

فهل هذا هو شكر نعمة الله علينا؟

وهل فقدنا الإحساس بالنعمة حتى صرنا لا نبالي بها؟

أخشى أن نكون كفرنا بالنعمة، فيصيبنا قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، فاحذروا؛ فإن سنن الله لا تحابي أحدًا.

يقول أحدهم: كنت أسير في الطريق، فوجدت رجلًا من أحد الدول الآسيوية يبكي بكاءً شديدًا حتى ابتلت لحيته، فظننت له حاجة، اقتربت منه وسألته: ما بك؟ ولماذا تبكي؟ فلم يجبني الرجل، وقلت في نفسي: هو أخرس، ما زال الرجل يبكي بكاءً شديدًا، ثم قال لي: تعال معي، فأخذني إلى القمامة ثم قال: انظر، أبكي على هذا، فإذ بي أرى بجوار القمامة طعامًا ملقًى على الأرض، إنه طعام صالح وكثير، يكفي لعشرات الأشخاص، ثم قال الرجل: والله، لقد كنا في نعمة مثلكم وأكثر، فلم نحافظ عليها وأهناها واحتقرناها فسلبها الله منا، وإن بقيتم على هذا الحال سيسلبها الله منكم.

ويقول رجل طاعن في السن من جنوب السعودية: قبل النفط كانت ديارنا فقيرة، وكانت الصومال بلد خير ورزق وتجارة، فذهبت إلى هناك قبل سبعين سنة أبحث عن الرزق، وقد رأيت أهل الصومال يلقون النعمة في القمامة من الرغد الذي هم فيه.

فسبحان الله!

كيف كانت الصومال؟ وكيف هي الآن؟

فاحذروا من زوال النعمة، وقيِّدوها بالشكر، فالشكر قيد للنعمة، وكفر النعمة طارد لها؛ لذلك كان السلف يعظِّمون النعمة ويحافظون عليها، فأم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها قد أبصرت حبة رمان في الأرض، فأخذتها، وقالت: «إن الله لا يحب الفساد».

والتقط أبو الدرداء رضي الله عنه حَبًّا منثورًا في غرفة له، وقال: «إن من فقه الرجل رفقَه في معيشته»، فهل نترك الطعام يُهان بعد اليوم؟ وهل نستخف به أو نحتقره؟ وهل يستكبر أحدنا إذا سقطت منه اللقمة أن يميط عنها الأذى ويأكلها؟ وهل نلقيه في القمامة؟



حين تطالعك إحصائيات الطعام المهدور في العالم يصيبك الفزع، فإن سكان العالم يهدر ثلث الغذاء الموجه للاستهلاك البشري، حسب الموقع الرسمي لمنظمة الأغذية والزراعة، وتعادل الكمية المهدورة من الغذاء العالمي حوالي مليار و٣٠٠ مليون طن سنويًّا.

وحين تطالعك الأرقام الهائلة لأعداد الجوعى في العالم تكون أكثر فزعًا.

أخي، إن الجوع ليس رجلًا فنقتله، وليس جيشًا فنحاربه، وإنما يقتله كسرة خبز أو حبات أرز، فلنحافظ عليها ولا نبخل بها على جائع أو فقير أو مسكين، فالجوع بئس الضجيع، وفي تاريخ المجاعات عِبَرٌ وعظات، وقد كتب العلَّامة محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى عن مجاعة في الشام وقعت قبل قرن فقال: « وقد ثبت عندي أن بعض الناس كانوا يأكلون ما يجدونه في المزابل والطرق رطبًا يُمضغ، أو يابسًا يُكسر، وأخبرني في بيروت من رأى بعض الأولاد الصغار رأوا رجلًا قاء في الطريق فتسابقوا إلى قيئه وتخاطفوه فأكلوه»؛ [انتهى كلامه].

عزيزي القارئ، وقانا الله وإياكم شر الجوع؛ فالجوع لا يرحم، وألمه لا يسكن، والبطن تطلب هل من مزيد؟ أحسِنْ جوار النعمة تدُمْ عليك، ولا تحتقرها فتفرَّ منك، ولا تنسَ الجائع؛ فإن الجوع لا قلب له، ولا شفقة لديه، فلا يعرف صغيرًا ولا كبيرًا، ولا يعرف وضيعًا ولا شريفًا.

أجريت إحدى الدراسات على بعض الدول العربية.. فكان ما يتلف ويلقى في القمامة ٤٥٪ من حجم القمامة!!



كشفت منظمة مكافحة الفقر «أوكسفام» أن ١١ شخصًا يموتون من الجوع كل دقيقة. (إحصائية ٢٠٢١)

وإذا دققت النظر في مثل هذه الإحصائيات، تجد أكثرهم مسلمين،

فماذا نحن قائلون لربنا عندما يسألنا.. لماذا مات هؤلاء جوعًا؟؟.

لماذا تركتموهم يُذبَحون بلا سكين؟

ذَبْحٌ بلا سِكّين

أطفالٌ يبكون جوعًا، وبيتٌ خالٍ من طعام، ورجل لا يملك من حُطام الدنيا سوى ثلاث جنيهات، خرج الرجل من بيته هائمًا على وجهه، هربًا من هذا البكاء، فبكاؤهم يُفتت الأكباد، ويقطع نِيَاط القلوب، اصطحب ابنته الصغيرة في يده، يسير في طريقه لا يدري بما حوله ولا بمن حوله، ولا كم من المسافة قَطع، ولا إلى أين يتجه؟

كل ما يشغله صورة أبنائه وهم يبكون، تلك الصورة التي لا تفارقه، وقد حان موعد العشاء.. فماذا يصنع مع هذه الأفواه الجائعة؟

وماذا تصنع ثلاث جنيهات مع جوعٍ قاتلٍ؟

وهل يُرِيق ماء وجهه كي يستعطف أحدًا؟

وهل يجد قلبًا رحيمًا يطعمهم؟

كل هذا يجول في خاطره!



امتلأ قلبه همًا وغمًا، وضاق صدره من قسوة الحياة، وبينما هو غارق في تفكيره إذ به يَسْتَفِيق على صوت بائعٍ أمامه، فقال في نفسه: لعلّ الرحمة هنا عند البائع!

استجمع شجاعته وأقبل عليه، فقال للبائع: بكم تبيع كيلو البطاطس؟

قال البائع: بسبع جنيهات.

الرجل: هل أستطيع شراء نصف كيلو بثلاث جنيهات ليس معي غيرها.

انتفخت أوداج البائع ونظر إليه باحتقار ثم قال له: أيها المتسول، اغرب عن وجهي فأنا لا أبيع أمثالك، أهْوَن عليّ إلقاء البطاطس في القُمامة ولا أعطِيها لأمثالك.

نزلت الكلمات طعنات في قلب الرجل، فقد ذُبِح من الوريد إلى الوريد، ورأى الرحمة تُذبَح أمام عينيه، ذُبِحت الرحمة بأبْخَس الأثمان، لقد ذُبِحت بنصف جنيه!

فسقطت الهموم على قلبه كالجبال؛ فقد خاب ظنّه في البائع، وبذل الرجل ماء وجهه بلا ثمن، وأهانه البائع بلا عِوَض.

شَعَر الرجل بالذّل والهوان، والدونية والاحتقار، أظلمت الدنيا في وجهه، وتَمَلّكه اليأس والإحباط، فشعر بالعجز والضعف، عجز عن وجبة عَشاء لأطفاله، فظهر القهر على صفحات وجهه.

رأت الصغيرة القهر في عيني أبيها؛ فأمسكت بيده وقالت: هيا يا أبي، لا نريد عشاء اليوم!

لله دركِ من فتاة!!

أأنتِ عزة النفس أم عزة النفس أنتِ؟؟

نظر الرجل إلى ابنته بعين القهر ثم انصرف.

لم يبتعد الرجل عن البائع سوى خطواتٍ حتّى سقط على الأرض وقد خرجت الدماء من فمه وأنفه، وانقطعت أنفاسه، ألْقَتْ الصغيرة بنفسها على أبيها وهي تصرخ وتبكي، أسرع النّاس إلي الرجل وأحاطوا به ثمّ أحضروا الطبيب لفحصِه، فقال الطبيب: لقد مات الرجل.

قال أحد الحاضرين: وما سبب وفاته؟

الطبيب: تَعرّض الرجل لضغط عصبي شديد، أدّى إلى انفجار الشرايين.

أيها البائع...

إنّ الرجل ما أتى إليك إلا محتاجًا، إنّ ماء وجهه أغلى من ماء الذهب وقد بَذَله مُتألمًا؛ ليسد جوع أولاده، ما طلب الرجل كثير مالٍ حتّى تنْهَره لم يطلب سوى نصف جنيه، ألَمْ يَشفع له عندك ذُل المَسألة، ألم يَرِق قلبك لِمَلابِسه الرّثة أو ابنته الصغيرة، إمّا أنْ تعطيه أو ترده ردًا جميلًا ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠]، قال تعالى:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، كان يكفيك كلمة طيبة تجبُر بها خَاطره، فالقلب الذي لا تستطيع أنْ تجبُره لا تكسره، إنّ قلوبنا كالزجاج تعكس مشاعرنا على صفحات وجوهنا، وتجرحها الكلمات القاسية، فإذا جُرحت انكسرت، وإذا انكسرت يصعُب جبرها

وَاحْرَصْ على حِفْظِ القُلُوْبِ مِنَ الأَذَى
فَرُجُوعهَا بَعْدَ التَنَافُرِ يَصْعُبُ
إِنَّ القُلوبَ إِذَا تَنَافَرَ ودُّهَا
شِبْهُ الزُجَاجَةِ كَسْرُهَا لا يُشْعَبُ

فاحذر من لسانك، تطعن به قلب غيرك، فكم من كلمةٍ جرحت قلوب، وكم من كلمةٍ قتلت نفوس.

إنّ الكلمة الجارحة تُدمِي القلب، وتُنغِص العَيش، ويضِيق بها الصدر، وربما لم يندمِل جرحها..

جِراحات السِّنانِ لها التِئامُ

وَ لا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ

مات الرجل؛ لكنّه مات قهراّ عندما وجد نفسه عاجزًا عن توفير وجبة عشاء لأولاده.

مات الرجل عندما لم يجد الرحمة.

مات الرجل عندما استعطف أخاه الإنسان؛ فكسر بخاطره وأذلّه.

مات الرجل عندما قَرَعَت أذُنه كلمات قاسية، تشق بقسوتها قلوب الجبال.

مات الرجل قهراً بطعنات كلمات البائع الجارحة وسُم لسانه.

فلماذا نتعامل مع الإنسان كأنّه جماد؟

هل طغت المادة على مشاعرنا فتبلد الإحساس؟

لماذا نستهين بقهر الرجال؟

فما أقسى قهر الرجال!، لا يطفئ لهيبه إلا الموت، عندما تجد الرجل يسلم روحه لملك الموت مختارًا طائعًا، فاعلم حينها أنّ الرجل قد حمل ما تنوء بحمله الجبال.

لا شيء يقهر الإنسان أكثر من أنْ يُقهَر في لُقمة عَيشه، أو قوت عِياله، أو الكسوة التي تستر عورتهم، أو السقف الذي يحميهم من حَرّ الصَيف وبرد الشتاء، حينها يشعر بالعجز وأنّ الحياة أصبحت ليس لها طعم ولا بها أمل.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: كُنْتُ أخْدُمُ رَسولَ صلى الله عليه وسلم.. فَكُنْتُ أسْمَعُهُ كَثِيرًا يقولُ: « اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بكَ مِنَ الهَمِّ والحَزَنِ، والعَجْزِ والكَسَلِ، والبُخْلِ والجُبْنِ، وضَلَعِ الدَّيْنِ، وغَلَبَةِ الرِّجَالِ..» (صحيح البخاري)

وعَلّم النّبي صلى الله عليه وسلم أبا سعيد الخدري أنْ يتعوذ بالله ويقول: «...وأعوذُ بكَ مِن غلبةِ الدَّينِ وقهرِ الرجالِ» (صحيح- الجامع الصغير)

يقول أحدهم: أنا طالب بإحدى الجامعات، وبينما أنا جالس أشاهد الطلاب يتحركون في ساحات الجامعة هنا وهناك، وقع نظري على بعض الطلاب يسبون ويشتمون شابًّا فقيرًا بأبشع الكلمات التي لا توصَف من شِدَّتها، يقذفون حُرُماته، ويعايرونه بفقْره، ويحترمون الذي يشتمه ويُعايره، رأيت الشاب ينظر إلى السماء؛ ليخفي دمعاته المتساقطة؛ حتى لا يراها الحاضرون فيزيدوه سخرية على سخرية واحتقارًا على احتقار.

ماذا يظن هؤلاء الحمقى؟

هل يظن أحدهم أنه بعيدًا عن الفقر؟

هل اتخذ أحدهم عهدًا عند الله أن يظل غنياً؟

هل يدري أحدهم ماذا صنعت كلماته بقلب هذا الشاب المسكين؟

لماذا نجعل ألسنتنا تنفث سما ولا تقطر عسلاً؟

إن ذبح المشاعر وطعن القلوب؛ ذَبْح بلا سِكْين، وقتل بلا دماء، وقهر بلا جيوش.

فعند القهر يشعر المَقهور بألم نفسي قاتل يُصاحبه انكسار القلب، وقد ظهرت دراسات حديثة تؤكد وجود مرض يسمى « متلازمة القلب المنكسر» سببه تَعرّض الشخص لضغوط نفسية شديدة تؤدّي أحيانًا إلى تكوُّن جلطات دموية في القلب بسبب ضعف العضلة القلبية وأحيانًا تُسبب الوفاة.

عزيزي: إن جبر القلوب مشاعر لا تقدر بثمن وثروة لا تُحسب بالمال.

فهذه امرأة كانت تجلس في مطعمٍ راقٍ تتناول غداءها. لمحت من خلال الزجاج طفلًا فقيرًا يمعن النظر إليها. أشارت إليه أن يأتي. أسرع الطفل إليها، سألته: هل أنت جائع؟

هز رأسه بنعم كبيرة. أجلسته قبالتها وطلبت له الطعام نفسه الذي كانت تأكله. جاءها النادل بطبق الطعام. قالت للطفل: تفضل. وأكلت غداءها بشهية لم تشعر بها من قبل. وعندما همت بالمغادرة طلبت الحساب فجاءها النادل بطبق وورقة ظنت أنها الفاتورة كتب عليها صاحب المطعم: «الحساب صفر، فليس للإنسانية ثمن يا سيدتي!».

-أتى رجل صديقًا له، فدق عليه الباب، فقال: ما جاء بك؟ قال: عليّ أربعمائة درهم دين، فوزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكي، فقالت له امرأته: لم أعطيته إذا شق عليك؟ ظننْت أنه يبكي متحسرًا لأنه دفع إليه هذه الأربعمائة، فقال لها: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتي، أبكي لأني اضطررته إلى أن يسأل.

فإياكم وكسر القلوب، ولا تتركوا الجوع يقتل إخوانكم.

قتيلة الجوع

يقول المنفلوطي:

« قرأت في بعض الصحف منذ أيام.. أن رجال الشرطة عثروا بجثة امرأة في جبل المقطم، فظنوها قتيلة أو منتحرة، حتى حضر الطبيب ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعًا!

تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هذه الميتة الشنعاء في مصر، وهذا أول يوم سَجلتْ فيه يد الدهر في جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديد.

لم تمت هذه المرأة المسكينة في مفازة منقطعة، أو بيداء مِجهْل، فنفزع في أمرها إلى قضاء الله وقدره كما نفعل في جميع حوادث الكون التي لا حول لنا فيها ولا حيلة، بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم وفي ملتقى غاديهم برائحهم.

ولا بد أنها مرتْ قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع

مجيبًا، ووقفتْ في طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على أمرها، فلم تجد من يمد إليها يده بلقمة واحدة تسد بها جوعتها، فما أقسى قلب إنسان وما أبعد الرحمة من فؤاده وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء!

لم ذهبت هذه البائسة المسكينة إلى جبل المُقطم في ساعتها الأخيرة؟ لعلها ظنت أن الصخر ألين قلبًا من الإنسان، فذهبت إليه تبثه شكواها، أو أن الوحش أقرب منه رحمة؛ فجاءته تستمنحه فضلة طعامه، وأحسبُ لو أن الصخر فهم شكواها لأشكاها، ولو أن

الوحش ألم بسريرة نفسها؛ لرثى لها وحنا عليها، لأني لا أعرف مخلوقًا على وجه الأرض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه أمام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان!

ألم يلتق بها أحد في طريقها فيرى صفرة وجهها وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم أنها جائعة فيرحمها!

ألم يكن لها جار يسمع أنينها في جوف الليل ويرى غدوها ورواحها حائرة ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره!

أأقفرت البلاد من الخبز والقوت فلا يوجد بين أفراد الأمة جميعها من أصحاب قصورها إلى سكان أكواخها رجل واحد يملك رغيفًا واحدًا زائدًا عن حاجته فيتصدق به عليها!

...فهاهم الفقراء يموتون جوعًا بين تلال الرمال وفوق شعاف الجبال من حيث لا راحم ولا مُعين!

لقد كان في استطاعة تلك المرأة المسكينة أن تسرق رغيفًا تتبلغ به، أو درهمًا تبتاع به رغيفًا، فلم تفعل، وكان في استطاعتها أن تعرض عرضها في تلك السوق التي يعرض فيها أعراضّهن الفتيات الساقطات، فلم تفعل؛ لأنها امرأة شريفة تفضل أن تموت بحسرتها على أن تعيش بعارها!

فما أعظم جريمة الأمة التي لا يموت فيها جوعًا غير شرفائها وأعفائها!».

هل ماتت المرأة لقلة الطعام؟

المرأة لم تمت لقلة الطعام، فالطعام ما أكثره!، ولكن، ماتت المرأة من بخل الناس وقسوة قلوبهم.



ولا أدري لماذا تحجرت قلوبنا؟

ولماذا طغت عليها المادة فصارت أشبه بالأصنام؟

إنها صارت أرضًا جدباء لا تنبُت فيها الرحمة؟

ففي خِضَم الحياة تاهت الرحمة عن قلوبنا؟

فأين نجد الرحمة؟

ومتى نتعلمها؟

تعال.. لنبحث عنها في قلب الحيوان، لعلنا نصطلح معها من جديد..

إن بعض إناث الحيوانات إذا رأت حيوانًا صغيرًا من سلالتها قد ماتت أمه، تتبناه وترضعه من ثديها حتى يكبر، ولا ترضى له أن يموت جوعًا، والأعجب من ذلك، أن بعض إناث الحيوانات تُرضع صغيرًا قد ماتت أمه وهو ليس من سلالتها، فتجد أرنبًا صغيرًا يرضع من قطة، وتجد قردًا أو نمرًا يرضع من كلبة، وتجد قردًا يتبنى قطًا فقد أبواه، وقطة تتبنى جروًا، والأمثلة على ذلك كثيرة مما هو واقع ملموس نراه بأعيننا، فهل تركت الحيوانات بعضها تموت جوعًا؟

وهل بخلت على بعضها؟

في مثل هذه المواقف لا يرضى الحيوان لحيوان مثله أن يموت جوعًا.

-جلس إبراهيم بن أدهم يوماً يأكل اللحم المشوي، فجاءت قطة فخطفت قطعة من اللحم وهربت بها،



فأسرع وراءها وأخذ يراقبها، فوجد القطة قد وضعت قطعة اللحم في مكان مهجور أمام جحر في باطن الأرض وانصرفت فازداد عجبه،

وظل يراقب الموقف باهتمام.. وفجأة..!!

خرج ثعبان أعمى فُقِأت عيناه، خرج من جحر في باطن الأرض، وبدأ يجر قطعة اللحم إلى داخل الجحر، فرفع الرجل رأسه إلى السماء وقال: سبحانك يا من سخرت الأعداء يرزق بعضهم بعضا!

فسبحان الله العظيم!

أي عطف.. وأي رحمة.. وأي شفقة.. في قلب تلك القطة التي جعلتها تُعَرِّض نفسها للخطر، وتخطف قطعة اللحم وتحملها بين أنيابها؛ لتطعم بها هذا الثعبان

الأعمى!

حملتها الرحمة التي في قلبها أن تعطي طعامها لهذا الثعبان الجائع، وربما كانت جائعة، وربما لا تجد طعامًا غيره!!

-يقول أحدهم:«خرجنا للجهاد فتبعنا كلب، فلما كنا خارج البلدة صعدنا إلى مكان مرتفع وجلسنا، ورأينا دابة ميتة ملقاة، نظر الكلب إلى الميتة ثمّ رجع إلى البلدة، عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلبًا، جاء الكلب إلى الميتة وقعد ناحية لم يأكل وأكلت الكلاب في الميتة، فما زالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر إليها، حتى أكلت الميتة وبقي العظم ورجعت الكلاب إلى البلدة، فقام ذلك الكلب وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقي عليها قليلًا ثمّ انصرف».



هذا كلب علم أن إخوانه من الكلاب في مجاعة، فلم تطيب نفسه أن يأكل وهم جوعى، فدعاهم إلى الطعام وكان بإمكانه أن يستأثر به لنفسه، بل آثرهم على نفسه ولم يذق الطعام حتى شبعوا ومضوا ثم أكل الفضلة.

فأي تكافل هذا؟

وأي تراحم هذا؟

وإن كان هذا يحدث بين الكلاب.. فما بالنا نحن البشر ينسى بعضنا بعضا ويأكل بعضنا بعضا؟

ولسان حال الإنسان يقول: أعيش أنا وليمت الآخرون؟.

إن الخفاش يتألم إذا رأى خفاشًا مثله جوعان، ولا يرضي أن يشبع وغيره جوعان، فيبذل من دمه ليشبع غيره.

يقترب الخفاش العطشان من الخفاش المرتوي، فيحضنه، ويلعق فمه، فيبدأ المرتوي يتقيء الدم في فم العطشان؛ حتى لا يموت العطشان.. فماذا لو لم تصنع الخفافيش ذلك؟

لو لم تصنع الخفافيش ذلك لمات منهم ما يقارب ٨٠%، فهلا تعلم الإنسان من الخفاش أن يتألم لحال إخوانه ويبذل من دمه ليشبع بني جنسه.

ثانيًا: صراع الجياع

أفعى الجوع:

عندما يتناول الإنسان الطعام فإنه يتحول في الجسم إلى طاقة (جلوكوز)، يأخذ الجسم ما يكفيه من هذه الطاقة ثم يخزن الزائد منها، ولكن.. أين يخزن هذه الطاقة؟

يخزنها في الكبد والعضلات والخلايا الدهنية، وكأنها مخازن الجسم الاحتياطية، يلجأ إليها وقت الشدائد والفقر، وهذا من صنع الله عز وجل المُحكم، الذي أحسن كل شيء خلقًا، وأتقن كل شيء صنعا، فالجسم عندما يجوع ولا يجد الطعام ويشعر بالخطر، يطرق أبواب مخازنه لتمده بالطاقة اللازمة لبقائه حيًا.

ولكن.. كيف يكون الحال عندما يتعرض الجسم لمجاعة شديدة؟

يظل الجسم يقاوم بما لديه من مخزون، حتى يستهلك كمية كبيرة من الدهون، وتنهار كتلة العضلات والانسجة للحصول على الطاقة،

وبهذا تبدأ عملية هدم الجسم لبعض من أجزائة ليتغذى عليها مثل العضلات والأنسجة، من أجل الحفاظ على الأنظمة الحيوية مثل الجهاز العصبي وعضلة القلب، وبهذا صار الجسم يأكل بعضه بعضا، فتجد من يتعرضون للمجاعة هياكلًا عظمية، عظام بارزة، وجلد لا أثر له، وجه شاحب، ولون منتقع شديد الصفرة، وعيون غائرة تحيطها هالة سوداء، لا تستقر بين الجفون، فهي أشبه ما تكون بقطرات زئبق لا استقرار لها، وأما عن دقة الساقين فأشبه ما تكون بساقي الطائر «أبي قردان»، فالمرء بهذه الحال قد أنهكه الجهد والتعب، وأصابه الخمول والكسل، لا تدري أنائم هو أو يقظان، يهاجمه النوم تارة

ويفقد الوعي تارات، حتى قيل في إحدى المجاعات: « كان الكلب يدخل البيت فيأكل الطفل الصغير وأبواه ينظران إليه فلا يستطيعان النهوض لدفعه عن ولدهما من شدة الجوع والإعياء».

ينقص البروتين في الجسم من شدة الجوع؛ فيؤدي إلى تورم الجسم، وخاصة اليدين والقدمين والوجه، كما يتحول الشعر بسبب نقص البروتين إلى اللون الأصفر المشوب بالحمرة ويتساقط بشكل كبير.

ثم تخفض درجة حرارة الجسم ويشعر المرء بالخمول والإنهاك، وفي النهاية تتوقف أعضاء الجسم واحدا تلو الآخر ما عدا المخ.

أما عن المخ وما يصنع الجوع به، فإليك طرفاً من حديثه...

المخ والجوع:

المخ يمثل ٢٪ من وزن جسم الإنسان، يستخدم الجلوكوز كمصدر رئيسي له في الغذاء، وعند عدم وصول الغذاء (جلوكوز)الكافي للمخ يحدث خلل واضطراب في خلاياه، فتضعف قدرة المخ ويتوقف عن أداء أقل الوظائف الهامة،

وإذا استمر نقص وصول الغذاء للمخ لفترة طويلة، يؤدي ذلك إلى موت خلايا المخ وزيادة خطر الإصابة بالاضطرابات العصبية، لأن المخ يحتاج إلى ٥٠% من الغذاء (الجلوكوز) المتوافر بالجسم، لعمليات التعلم والذاكرة والتفكير، فيصاب الإنسان بالزهايمر واختلال في التفكير؛ فتصدر عنه سلوكيات لا معقولة، ويصاب بالهلوسة ويهذي هذيان المجنون، فعند ذاك، تذبح القوانين، وتضيع الأخلاق، وتنتحر القيم، ويموت الضمير،

ويتخلى الإنسان عن إنسانيته، فيصير كالكلب في سعاره، وكالسبع في افتراسه، يفترس كل ما يراه، ويلتهم كل شيء، تُنزع الرحمة من قلبه وتنبُت القسوة فتنمو وتترعرع حتى تسود القلب، وترحل الرحمة إلى حال سبيلها، لقد زال الساتر الرقيق بين الإنسان وبين الحيوان ساتر العقل، فصار لا يعرف سوى شريعة الغاب.

شريعة الغاب:

في أوقات المجاعات وعندما يشتد الجوع لا يعرف الإنسان الجائع سوى شريعة الغاب، فيرفع شعار «البقاء للأقوى» كما في الغابات والأدغال، فالأسد يضع الفريسة بين أنيابه بلا شفقة ولا رحمة وإن سحت الدموع أنهارًا، والذئب يذبح الأم أمام صغارها وإن ملأوا الدنيا صياحا، والصقر ينتشل الفرخ من أحضان أمه بقسوة وغلظة، فالقوي يأكل الضعيف، وليرحل الضعفاء فلا مكان لهم، ولا صوت للعقل فقد تاه في غيابة الجب، فأعدمت العدالة، وساد الظلم.

حتى قال أحد الرواة عن زمن المجاعات: «إن العيشة في الصحراء بين الكواسر الضارية، أصبحت في ذلك العهد أكثر أمنًا وطمأنينة منها بين الآدميين الجائعين».

عزيزي القارئ: إن عالم المجاعات عالم أشبه بالخيال، فهلا تفضلت علي لنرحل سويًا إلى هذا العالم ونرى هذا الإنسان الذي نعرفه بخلقه ودينه ولطفه وحنانه، وقيمه ومبادئه وعاداته وتقاليده، ومدنيته وحضارته ومشاعره وإنسانيته،

كيف يكون هذا الإنسان إذا جاع بشدة وغاب عقله؟

وكيف ارتكب ما لا يخطر على بال؟



أخي الكريم: إن من أصعب المواقف وأشدها ألمًا على كاتبٍ، أن يخط كلمات بيمينه يراها خنجرًا يطعن قلبه، وأن يرى فؤاده صريع كلماته، يراه ذبيحًا بين السطور، وها أنا اليوم أرتقي ذاك المرتقى الصعب، وأقف ذاك الموقف المؤلم، أخط كلمات أطعن بها قلبي، لأجد فؤادي صريعًا بين سطوري، وذاك لأني أكتب ما يفجعني ويملأني حزنًا، أكتب عن نكبة من نكبات مصر وكارثة حلت بأهلها، وصفحة مؤلمة من تاريخها، فمصر وطن اختلط حبه بدمي، وعاش في وجداني، وشربت من نيله، ونبّت في تربته كما ينبت الزرع الرّيان، فلو أني أعلم أنني إن تجاهلت هذه الصفحة المؤلمة من تاريخه نسيها التاريخ؛ ما كتبت كلمة واحدة، ولكن عذري أن التاريخ لا ينسي!

المجاعة الفاطمية:

(٤٥٧ - ٤٦٤هـ)

سبع سنوات عجاف متتالية مرت على مصر في العهد العبيدي (الفاطمي) زمن الحاكم «المستنصر بالله»، هذه السنوات السبع التي مرت بها مصر، أشد مجاعة مرت بها منذ عهد يوسف عليه السلام، فهي تشبه سني المجاعة زمن يوسف عليه السلام، لكنها مجاعة بلا يوسف؛ فأهلكت الحرث والنسل وضاعت البلاد والعباد، فأطلق عليها المؤرخون «الشدة العظمى» أو «الشدة المستنصرية».

لقد اختطفت هذه المجاعة ثلث سكان مصر!

كانت البداية عندما نقصت مياه النيل، والنيل شريان الحياة في مصر، فماذا لو انقطع الشريان؟



قطعًا ستسيل الدماء ثم تفقد بعدها حياتك.. فهل يحيا جسدك بلا دماء؟؟

هذا ما حدث مع مصر؛ لأنها صحراء يشقها نيل تدب الحياة على جانبيه، فإذا جفّ النيل؛ عادت مصر موات؛ صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء.

نقصت مياه النيل؛ فنقصت الزراعة وقلت المحاصيل، بدأ التجار في شراء الغلال وتخزينها لترتفع الأسعار، فلماذا هذا الجشع من التجار؟

لماذا نضر الناس في أقواتهم؟

ولماذا نمنعهم طعامهم؟

هل من أجل المال؟

بئس المال الذي تجمعه من دماء إخوانك، وتبًا لهذا المال الذي يموت بسببه أخوك المسلم؟

أليس الاحتكار محرمًا في ديننا؟

قال النووي: «.. أجمع العلماء على أنه لو كان عند إنسان طعام واضطر الناس إليه، ولم يجدوا غيره، أجبر على بيعه دفعًا للضرر عن الناس».

جاء في الموسوعة الفقهية «الدرر السنية»: «يَجوزُ للحاكِمِ إجبارُ مُحتَكِرِ الطَّعامِ على البَيعِ، إذا خِيفَ الضَّرَرُ على العامَّةِ، وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقْهيَّةِ الأربعةِ».

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يَحْتَكِرُ إلَّا خاطِئٌ»؛ (صحيح مسلم).

نعم، من احتكر أقوات الناس في الشدة فهو خاطئ، لأن المجاعة إذا حلت بديار قوم لا تفرق بين أسياد وعبيد، ولا ملوك ورعاع، ولا غني وفقير، ولا تاجر ومستهلك، الكل يكتوي بنارها، ويصلى من سعيرها، فلا تكن أنت ممن يزيدها استعارًا ويُأجج نارها، كما فعل هؤلاء التجار الذين زادوا الطين بلة وتعاملوا بالاحتكار، فلم يكن النيل وحده مسؤولًا عن تلك المجاعة، بل كان أمثال هؤلاء المحتكرين؛ الذين احتكروا الغلال في منازلهم لترتفع الأسعار ويجمعوا الأموال، ولكن الحقيقة أنهم شربوا من دماء المصريين حتى الثمالة.

كانت النتيجة الحتمية لجشع التجار مع نقص الغلال أن اشتدت الأزمة، وارتفعت الأسعار، وعم الغلاء البلاد حتى صار غلاء فاحشًا.

فكانت البيضة من بيض الدجاج تباع بعشرة قراريط (من الأرض)، وشربة الماء بدينار، وبيع أردب قمح بثمانين دينارًا، حتى صار يباع رغيف العيش كما تباع التحف الثمينة فبلغ أربعة عشر دينارًا،

وبيعت الأمتعة والممتلكات بأبخس الأثمان؛ ليحصل الناس على قوتهم، فبيع دار ثمنها تسعمائة دينار بتسعين دينارا اشترى بها كيس دقيق، وبيعت حارة تتكون من عشرين دارًا، بطبق خبز عشرين رغيفا، كل دار برغيف، فسميت بعد ذلك بحارة «الطبق»، وذكر سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان: « أن امرأة خرجت ومعها قدر ربع جوهر من اللؤلؤ، فقالت من يأخذ مني هذا الجوهر ويعطيني عوضه قمحًا؟! فلم تجد من يأخذه منها، فقالت: إذا لم تنفعني وقت الضائقة فلا حاجة لي بك، وألقته على الأرض وانصرفت،

فالعجب ان ظل اللؤلؤ مرمياً على الأرض ثلاثة أيام ولم يوجد من يلتقطه!!»، اشتد الغلاء والبلاء، فاشتدت المجاعة على الناس شدة عظيمة؛ حتى ظهر السلب والنهب.

السلب والنهب:

لم يستطع الناس الحصول على طعامهم لندرة الأقوات، فنشبت المجاعة أنيابها في أجساد الناس، وانفرط زمام الأمن؛ فانتشرت السرقات، وشاعت الفوضى، وعم السلب والنهب البلاد، فصار عسكر البلاد ينهبونها ويقطعون الطريق، فنهبوا قصر الحاكم «المستنصر» وأجبروه على بيع ممتلكاته بأبخس الأثمان، وقام العبيد والغوغاء بأعمال سلب ونهب في طول البلاد وعرضها، وكانت الأعراب يقدمون بالطعام يبيعونه في ظاهر البلد، لا يتجاسرون يدخلون لئلا يخطف وينهب منهم، وخاف المزارعون على أنفسهم؛ فهجروا الأراضي وتركوا الزراعة؛ فأحكمت المجاعة زمامها، وكشرت عن أنيابها، ونشبت أظافرها في أعناق الناس؛ حتى باع «المستنصر» كل ما يملك، ولم يتبق له سوى حصير يجلس عليه وبغلة يركبها، يقول المؤرخ المقريزي: « وآل أمر الخليفة المستنصر إلى أن صار يجلس على.. حصير، وتعطلت دواوينه وذهب وقاره، وخرج من نساء قصوره ناشرات شعورهن يصحن: « الجوع الجوع» وهُنّ يردن المسير إلى العراق، فتساقطن عند المصلى، بظاهر باب النصر من القاهرة، ومتن جوعًا..».

ولم يجد المستنصر ما يأكله، حتى كانت ابنة أحد العلماء وكانت من الأثرياء، تبعث إليه كل يوم بقدحٍ به طعام، فلم يكن «للمستنصر» قوت سوى ما كانت تبعث به إليه وهو مرة واحدة في اليوم لا يجد غيره، فإذا كان هذا حال «المستنصر» حاكم البلاد فكيف

يكون حال العامة؟ قد صار الناس في تيه عظيم، وصار الخبز يُخطف من على رؤوس الخبازين، ولتعلم حال البلاد وما وصلت إليه، إليك هذا الخبر.

رغيف بألف دينار:

يلاقي الإنسان الشدائد والأهوال العظام، التي تنوء بحملها الجبال، فيقف كالأسد في عرينه لا تكسره الشدائد ولا يهاب الأهوال، بل ربما كسر الشدائد وفرّت من أمامه الأهوال، ولكن.. ما الذي يكسر هذا الأسد الهصور؟

ينكسر المرء عندما يرى أولاده يتضورون جوعًا أمام عينيه، ربما تحمل المرء الجوع الفتاك والآلام القاتلة، لكنه لا يتحمل أن يرى ولده ملقى على الأرض قد أصابه الجهد والتعب، وأنهكه الجوع والسغب. يكسر الإنسان كسرة خبز لا يجدها، ليسُد بها الأفواه الجائعة، ورغيف خبز صار أغلى من اللؤلؤ والمرجان، وأندر من قطرة ماء وسط صحراء، فصار الرغيف لا يراه الناس إلا في الرؤى والأحلام، وهذا الذي حدث مع تلك المرأة المصرية البائسة في هذه المجاعة القاتلة، نظرت المرأة إلى أولادها وهم يتضورون جوعًا، فبعضهم علا نحيبه وكثر بكاؤه، وبعضهم ملقى على الأرض لا يستطيع حِراكًا، وبعضهم يضرب الأرض بقدميه ويصرخ من شدة الجوع، وآخر يتعلق بأمه ويصرخ: أريد طعاما.. أريد طعامًا!، فما أشده من موقف على تلك المرأة؟

إنها لا تجد خبزًا فقط لتطعمه أولادها.

فماذا تصنع هذه المسكينة في هذا الموقف العصيب؟

فتحت المرأة صندوق حُليها وتفحصته جيدًا وعمدت إلى أنفس عقد فيها وقيمته ألف دينار، فأخذته وانطلقت إلى خارج القاهرة لتشتري به دقيقًا تصنع منه الخبز، فطافت على الناس تعرض عليهم هذا العقد النفيس، ليعطوها به دقيقًا، فكلما مرت على جماعة تعرضه عليهم يعتذرون إليها ويدفعونها إلى غيرهم، الكل يزهد فيه، إلى أن رق رجل لحالها، فباعها «شوالًا» من الدقيق بهذا العقد النفيس، فصار الدقيق بألف دينار، اكترت المرأة الرجال الأشداء معها، ليحموها من اللصوص والنهّابة، وحملت الدقيق وعادت إلى القاهرة، وعندما وصلت إلى أبواب القاهرة، سلمها الرجال الذين يحملون الدقيق ويحمونه «شوال» الدقيق، فتسلمته ودخلت القاهرة من باب «زويلة»،

ولم تخطو سوى خطوات داخل القاهرة حتى اجتمع الجياع حولها، وخطفوا الدقيق من يديها وانتهبوه، فلما تأكدت من ضياع الدقيق، صارت تنتهب معهم، فلم ينبها من دقيقها سوى ملء كفيها!

عادت المرأة إلى منزلها باكية حزينة، تبكي لحال صغارها وحال بلادها.

لم يصنع الدقيق معها سوى رغيف من الخبز، أخذته المرأة في طيات ملابسها وانطلقت إلى قصر «المستنصر»، وقفت عند باب القصر على مكان مرتفع، ورفعت الرغيف بين يدها عاليًا، ليراه الناس جميعًا، وصرخت قائلة: يا أهل القاهرة.. ادعوا لمولانا «المستنصر» الذي أسعد الله الناس بأيامه، وأعاد عليهم بركات حسن نظره، حتى كلفني هذا الرغيف ألف دينار».

يقول المقريزي: « ووقف مرة بعض المياسير بباب القصر وصرح إلى أن أحضر المستنصر، فلما وقف بين يديه قال: يا مولانا هذه سبعون قمحة وقفت علي بسبعين دينارًا



كل حبة قمح بدينار، في أيامك، وهو، أني اشتريت إردبًا بسبعين دينارًا فنهب مني ولم يبق في منه سوى ما وقع بيدي وانتهابي منه مع من نهب، فعددت ما في يدي فجاء سبعين حبةً من قمح، وإذا كل حبة بدينار».

ما أروع قوله صلى الله عليه وسلم:« مَن أصبحَ منكم آمنًا في سربِهِ، مُعافًى في جسدِهِ عندَهُ قوتُ يومِهِ، فَكَأنَّما حيزت لَهُ الدُّنيا»، (صحيح الترمذي).

فمن عاش في أمان، ومَنّ الله عليه بالعافية، وامتلك قوت يومه، فكأنما امتلك الدنيا بأسرها.. فماذا يريد المرء في دنياه بعد الأمن والعافية والقوت؟

قال الشاعر:

إِذَا اجْتَمَعَ الْإِسْلَامُ وَالْقُوتُ لِلْفَتَى
وَأَضْحَى صَحِيحًا جِسْمهُ وَهْوَ فِي أَمْنِ
فَقَدْ مَلَكَ الدُّنْيَا جَمِيعًا وَحَازَهَا
وَحَقَّ عَلَيْهِ الشُّكْرُ لِلَّهِ ذِي الْمَنِّ

فأين حمدنا لله؟

وأين شكرنا له؟

وأين رحمتنا بالجوعى والمعدمين؟

سأل رجل عَبْدَ اللهِ بنَ عَمْرِو بنِ العَاصِ فقالَ: أَلَسْنَا مِن فُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ؟

فَقالَ له عبدُ اللهِ: أَلَكَ امْرَأَةٌ تَأْوِي إلَيْهَا؟



قالَ: نَعَمْ، قالَ - عبدالله -: أَلَكَ مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ؟

قالَ: نَعَمْ، قالَ-عبدالله-: فأنْتَ مِنَ الأغْنِيَاءِ، قالَ: فإنَّ لي خَادِمًا، قالَ-عبدالله-: فأنْتَ مِنَ المُلُوكِ؛ (صحيح مسلم).

يقول المناوي: « مَنْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بين عَافِيَةِ بدَنِهِ، وَأَمْنِ قَلْبِهِ حَيْثُ تَوَجَّهَ، وكَفَافِ عَيْشِهِ بِقُوتِ يَوْمِهِ، وَسَلَامَةِ أَهْلِهِ، فَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ جَمِيعَ النِّعَمِ الَّتِي مَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا لَمْ يَحْصُلْ عَلَى غَيْرِهَا، فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَسْتَقْبِلَ يَوْمَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِشُكْرِهَا؛ بِأَنْ يَصْرِفَهَا فِي طَاعَةِ الْمُنْعِمِ، لَا فِي مَعْصِيَةٍ، وَلَا يَفْتُرَ عَنْ ذِكْرِهِ».

لقد كثر السلب والنهب وقطاع الطرق في مصر؛ حتى انقطع السير في الطرقات برًا وبحرًا.

فإذا غاب الأمن فلا دولة تحكم، ولا قانون يردع، ولا شريعة تطبق، ولا تقاليد تعرف، ولا عادات تتبع، وتذبح القيم، والفضائل، والمبادئ، على أعتاب شريعة الغاب.

إِذَا انْعَدَمَ الْأَمْنُ فَلَا تَسْأَلْ.. كم من الأعراض انتهكت؟

ولا كم من الأموال سلبت؟

ولا كم من التجارات كسدت؟

ولا كم من المدن دمرت؟

ولا كم من الناس هجروا أوطانهم؟

ولا كم من الدماء سالت؟

لذا امتن الله عز وجل على قريش فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤].

وهكذا اشتد الكرب على الناس، يصب عليهم العذاب صبا، لا أمن ولا أمان، ولا سلم ولا سلام، ولا قوت ولا طعام، ومن وجد الطعام وجده بأغلى الأثمان.

قال المقريزي: « ويكون مع الرجل جملة من الدنانير فيطلب من يشبعه خبزا فلا يجده».

وهكذا اشتد الغلاء على الناس حتى زهدوا في الأموال والممتلكات، وصار رغيف الخبز عندهم أغلى من كنوز الأرض قاطبة، واشتدت المحنة حتى انعدمت الأقوات واختفى الطعام من الأسواق.. فماذا صنع الناس؟

تحولت حياة الناس مع شدة الجوع أشبه ما تكون بحياة الأدغال.

حياة الأدغال:

صارت حياة المصريين كحياة الأدغال، فصارت الناس كالوحوش الكاسرة يلتهمون كل شيء، أكلوا الحشائش وأوراق الأعشاب، ثم أكلوا القطط والكلاب حتى ندرت وبيعت بأغلى الأثمان، فبيع الكلب بخمسة دنانير والقط بثلاثة، ثم اختفت القطط والكلاب، فأكل الناس الجيف والميتات، وماتت الفيلة فأكلت ميتاتها، وأفنيت الدواب فلم تجدها حية ولا ميتة!

وأكثر الناس من أكل الميتة والجيف فهل يجوز أكل الميتة؟

يحرم أكل الميتة لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، قال ابنُ المُنذِر: « وأَجمَع أهلُ العِلمِ في جُمَلِ أقاويلِهِم على تحريمِ الميْتةِ»، فماذا لو اضطر الإنسان لأكلها؟

جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: (وَأَما فِي حَالَةِ الإِلْجَاءِ وَالاِضْطِرَارِ، فَقَدْ ذَهَبَ الْفُقَهَاءُ إِلَى جَوَازِ أَكْل الْمَيْتَةِ عِنْدَئِذٍ، فَمَنِ اضْطُر إِلَى أَكْل الْمَيْتَةِ إما بِإِكْرَاهٍ مُلْجِئٍ مِنْ ظَالِمٍ أَوْ بِجُوعٍ فِي مَخْمَصَةٍ أَوْ بِفَقْرٍ لاَ يَجِدُ معه غَيْرَ الْمَيْتَةِ، حَل لَهُ ذَلِكَ لِدَاعِي الضرُورَةِ، حَيْثُ جَاءَ فِي التنْزِيل بَعْدَ تَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ قَوْله تعَالَى: ﴿فَمَنِ اضْطُر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِن اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وَقَال سُبْحَانَهُ: ﴿فَمَنِ اضْطُر فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِن اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، قَال الزيْلَعِي: «فَظَهَرَ أَن التحْرِيمَ مَخْصُوصٌ بِحَالَةِ الاِخْتِيَارِ، وَفِي حَالَةِ الاِضْطِرَارِ مُبَاحٌ، لأَن الضرُورَاتِ تُبِيحُ الْمَحْظُورَاتِ»).

ومما يثير الدهشة والعجب، تلك الحادثة التي ذكرها المؤرخون في هذه المجاعة، فقد ذكروا أن: «وزير الدولة نزل يومًا عن بغلته وتركها لغلامه يحرسها من النهّابة واللصوص، فغفل الغلام عنها لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة من الجياع فذبحوها وأكلوها، فلما علم الوزير بذلك، بحث عنهم حتى عثر عليهم؛ فصلبهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم، ويرتدع الناس ولا يقدمون على مثل هذه الأفعال، فلما كان صباح اليوم التالي، فإذا بالناس قد أخذوا لحوم الثلاثة المصلوبين وأكلوها ولم يتبق سوى عظامهم».

إن ما صنعه هؤلاء الجياع لا يتخيله عقل ولا يستسيغه منطق.

فلا أدري كيف أكل هؤلاء الجياع لحوم البشر؟!!!

ولكن..

دعنا نتساءل أولًا: هل يجوز أكل ميتة الآدمي عند الضرورة؟



جاء في الموسوعة الفقهية «الدرر السنية» ما نصه: « يَحرُمُ على المُضطَرِّ أكْلُ الآدميِّ المَيّتِ، وهذا مذهبُ الجمهورِ: الحَنَفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والحنابلةِ، ووجْهٌ للشَّافِعيَّةِ، وهو مذهبُ الظَّاهريَّةِ

الأدلَّة:

أوَّلًا: مِنَ الكتاب

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وجهُ الدَّلالةِ: أنَّ مِن إكرامِ بَني آدَمَ حمايةَ جسدِه مِنَ الاعتِداءِ حَيًّا ومَيّتًا، فلا يُباحُ لأحدٍ أكْلُه.

ثانيًا: مِنَ السُّنَّة:

عن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: «كَسْرُ عَظْمِ المَيّتِ ككَسْرِه حَيًّا » وجهُ الدَّلالةِ:

أنَّ الميّتَ كالحيِّ في الحرمةِ، فيَحرُمُ أذيَّته في جِسمِه كعظْمِه

ثالثًا: أنَّ الآدميَّ لا يُسمَّى مَيْتةً، فلمْ يَجُزْ للمُضطَرِّ أنْ يأكُلَه بإباحةِ اللهِ تعالى له أكْلَ المَيْتةِ

رابعًا: أنَّه لا تُنتَهَكُ حُرمةُ آدميٍّ لآخَرَ» أهـ

العقل والمعدة:

قالوا في الأمثال قديمًا: « إذا جاعت البطون تاهت العقول».

فهل حقًا عند الجوع الشديد تضطرب العقول، وتتوقف عن التفكير السليم، ولا يكون للعقل همّ إلا أن يفكر كيف يحصل على الطعام وإن كان فيه هلاكه؟



وهل يكون العقل تابعًا للبطن وقت المجاعة الشديدة؟

فلتنظر معي هذه الحكاية الرمزية التي تعبر عن هذا المثل:

«أصيب ثلاثة ثعالب بالجوع الشديد، الذي كاد يقضي عليهم، فذهبوا يبحثون عن طعام، لعلهم ينجون من هذا الهلاك المحقق، أثناء بحثهم وجدوا قطيعًا من الغنم يقودهم راعٍ باتجاه القرية، الثعالب أسرعت إلى القطيع دون فكر أو تمهل، وقالوا: ندخل خِفية إلى القرية وسط هذا القطيع؛ لعلّنا نصطاد شيئًا من القرية فنأكله ونسد جوعنا، ودخلوا خفية وسط القطيع، ومن سوء حظهم كان الراعي يسير بالغنم إلى المجزرة ليذبحهم جميعًا، ولم تنتبه الثعالب إلى ذلك إلا عند المجزرة، فقام الجزار بأخذ الخراف خروفًا خروفًا ليذبحهم.

فأدرك أحد الثعالب الخطر وقد كان شديد الذكاء، فأطلق رجليه للريح وفر هاربًا، ثم قام الثعلب الثاني بتقليد صاحبه وأطلق رجليه للريح فنجا من الجزار، أما الثعلب الثالث فقد كان غارقًا في تفكيره، فكل تفكيره كيف يحصل على الطعام؟

انتظر الثعلبان أن يأتي صاحبهما لكنه لم يأتِ، لأنه وقع فريسة سهلة للجزار، ينتفع بفروه.

وهكذا فر الثعلب من هلاك إلى هلاك، وهذا ما صنعه المصريون حينما اشتدت عليهم المجاعة واختفت الحيوانات، فأرادوا أن يفروا من الهلاك، فعالجوا الداء بالداء، وفروا من الموت إلى الموت، ومن هلاك إلى هلاك، فأكلوا لحوم البشر.

أكل لحوم البشر:

لم يجد الناس ما يأكلوه، ولا ما يقيم صلبهم، فكان الناس من شدة الجوع يتساقطون موتى؛ يظل أحدهم يصيح ويتلوى من آلام الجوع حتى يخر ميتًا، فمات خلق كثير، فكان الواحد من البيت يموت فلا يمر اليوم أو الليلة حتى يموت سائر من في البيت، وثقل على الناس دفن جثث موتاهم، فكانوا يحفرون الحفرة الكبيرة ويلقون فيها الجمع الغفير من الرجال والنساء والأطفال، ولما اشتد الأمر وكثر الموتى كانوا يلقون بجثث موتاهم في النيل، وكثر الهلاك، فلجأ الأحياء من الناس إلى أكل جثث موتاهم؛ حتى يبقوا على قيد الحياة، وكانوا ينبشون القبور ويأكلون الموتى، حتى صار الناس لا يجرؤن أن يدفنوا موتاهم بالنهار حتى لا ينبش القبر فيؤكل الميت.

واشتد الأمر حتى أكل الأحياء بعضهم بعضا، وصار يقتل بعضهم بعضًا، فقد عثروا على رجل يقتل الصبيان والنساء ويدفن رؤوسهم وأطرافهم، ويعرض لحومهم للبيع، فأخذوه وقتلوه.

يقول المقريزي: « ثم تزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضًا.

وكان بمصر طوائف من أهل الفساد قد سكنوا بيوتًا قصيرة السقوف قريبةً ممن يسعى في الطرقات، فأعدوا سلبًا وخطاطيف، فإذا مر بهم أحد شالوه في أقرب وقت، ثم ضربوه بالأخشاب وشرحوا لحمه وأكلوه.

قال الشريف أبو عبد الله محمد الجواني في كتاب النقط: حدثني بعض نسائنا الصالحات قالت: كانت لنا من الجارات امرأة ترينا أفخاذها وفيها كالحفر، فتقول: أنا ممن خطفني أكلة الناس في الشدة، فأخذني إنسان، وكنت ذات جسم وسمن، فأدخلني بيتًا فيه



سكاكين وآثار الدماء وزفرة القتيل، فأضجعني على وجهي وربط في يدي ورجلي سلبًا إلى أوتاد حديد، عريانةً، ثم شرح من أفخاذي وأنا أستغيث ولا أحد يجيبني، ثم أضرم الفحم وأسوى من لحمي وأكل أكلًا كثيرًا، ثم سكر حتى وقع على جنبيه لا يعرف أين هو، فأخذت في الحركة إلى أن تخلى أحد الأوتاد، وأعان الله على الخلاص، وخلصت، وحللت الرباط، وأخذت خروقا من داره

ولففت بها أفخاذي، وزحفت إلى باب الدار وخرجت أزحف إلى أن وقعت إلى الناس، فحُمِلت إلى بيتي، وعرّفتهم بموضعه، فمضوا إلى الوالي فكبس عليه وضرب عنقه، وأقامت الدماء في أفخاذي سنةً إلى أن ختم الجرح، وبقي هكذا

حفرا» أهـ.

ولمّا انتشر بين الناس أكل الميتة، والنتن، والجيف، وصاروا يأكلون لحوم البشر، وامتلأت الشوارع بجثث الموتى، وألقيت الموتى في النيل، كانت النتيجة الحتمية؛ انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة، فاجتمع عليهم الجوع، والوباء، والسلب والنهب، والحرب، والفتن؛ حتى صارت البلاد قطعة من العذاب، وعَظُمَت شناعة الموت، حتى تُرِك الموتى في أماكنهم لا يجدون من يدفنهم، وخلت البيوت من ساكنيها، وخلت الأسواق من الناس، وعم الخراب البلاد، وفني الناس حتى قضت تلك المجاعة على ثلث سكان مصر.

عادت مياه النيل إلى طبيعتها، وكشف الله الغمة عن البلاد، وعادت الحياة تدب في مصر من جديد، وعاش الناس زمانًا في أمن، وعادت الحياة إلى سابق عهدها قبل المجاعة، ثم أذن الله بزوال الدولة العبيدية (الفاطمية) على يد «صلاح الدين»، وحكمت الدولة الأيوبية، فعادت المجاعة تطل برأسها من جديد...





المجاعة الأيوبية:

(زمن العادل الأيوبي ٥٩٧هـ): كل ما أسرده في هذه المجاعة المصرية من روايات فهي للمؤرخ «عبد اللطيف البغدادي»-ولكن بتصرف كبير- فقد عاش زمن المجاعة وعاين الأحداث بنفسه.

يقول البغدادي: « ودخلت سنة (٥٩٧هـ) مفترسة أسباب الحياة، وقد يئس الناس من زيادة النيل، وارتفعت الأسعار، وعم القحط البلاد، وشعر الناس بالخطر، وخاف الناس من الجوع، فهاجر أهل القرى والريف إلى أمهات البلاد، وهاجر كثير من الناس إلى الشام، والمغرب، والحجاز، واليمن، وتفرقوا في البلاد ومُزِّقوا كل مُمزق، ودخل إلى القاهرة ومصر أناس كثير، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت.... واشتد الجوع بالفقراء حتى أكلوا الميتات، والجِيَف، والكلاب، والبعر، والأرواث، ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا الأطفال، فكثيرا ما يعثرون عليهم ومعهم أطفال مشويون أو مطبوخون، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل.

ورأيت طفلًا مشويًا في سلة، وقد أحضروه إلى دار الوالي ومعه رجل وامرأة، يزعُم الناس أنهما أبواه، فأمر الوالي بإحراقهما».

«وحينما ابتدأ الفقراء في آكل بني آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون في ذلك ويستفظعون هذا الأمر ويستنكرونه، ثم انتشر أكل لحوم البشر واعتاد الناس عليه بحيث اتّخذوه معيشةً ومطيّة ومدخرا وتفننوا فيه، وفشا ذلك بكلِّ مكان من ديار مصر، فصار الناس لا يتعجبون من ذلك ولا يستنكرونه.

ولقد رأيت امرأةً يسحبها الرّعاعُ في السوق وقد وجدوا معها طفلًا مشويًّا تأكل منه، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شئونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره، فتعجبت من الناس أشد العجب، لماذا لا ينكرون عليها؟

وما كان ذلك إلّا لكثرة تكررِ مثل هذا المشهد على إحساسهم؛ حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق أن يُتعجب منه.

ورأيتُ قبل ذلك بيومين صبيًا مشويًا وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشيِّه وأكلِ بعضه.

وفي بعض الليالي بعد صلاة المغرب كان مع جارية طفل لبعض الأغنياء كانت تلاعبه، فبينما هو إلى جانبها غفلت عنه، فهجمت عليه صعلوكةٌ فبقرت بطنه، وجعلت تأكل منه نيّئًا. وحكى لي عدة نساء أن الجياع يهجمون عليهن لاقتناص أولادهن وهن يدافعن عن أولادهن بجهدهن.

ورأيت مع امرأةٍ طفلًا سمينًا فاستحسنتهُ وأوصيتها بحفظه، فحكت لي أنها كانت تمشي على الخليج فأنقض عليها رجلٌ جافٍ ينازعها ولدها، فألقت بنفسها على الولد نحو الأرض، حتى أدركها أحد الفرسان وطرد الرجل عنها، وزعمت أن الرجل المفترس كان يهم بكلِّ عضوٍ يظهر من الولد أن يأكله وأن الولد بقيَ مدةً مريضا لشدة تجاذبه بين المرأة والمفترس».

« ولقد أُحْرِق بمصر خاصة في أيام يسيرة ثلاثون امرأةً كلّ منهنّ تُقر أنها أكلت جماعة من البشر، ورأيت امرأةً قد أحضروها إلى الوالي وفي عنقها طفل مشوي، فضربت أكثر من مائتي سوط على أن تقر فلا



تُحيرُ جوابا، بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت».

« وحكى لنا رجل أنه كان له صديق أفتقر في هذه المجاعة فدعاه صديقه هذا إلى منزله ليأكل عنده، فلما دخل منزل صديقه وجد عنده جماعة عليهم رثاثة الفقر وبين أيديهم طبيخٌ كبير اللحم وليس معه خبز، فتوجس الرجل من ذلك وطلب أن يذهب إلى المرحاض فوجد خزانة الطعام ممتلئة برمم الآدمي وباللّحم الطري فارتاع وخرج فارًّا».

« وظهر من هؤلاء الخُبثاء الذين يأكلون لحوم البشر من يصيد الناس بالمكر والخداع ويحتالون عليهم حتى يجتلبونهم إلى مكانهم، وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطبّاء ممّن ينتابني، أما أحد هؤلاء الأطباء فإنّ أباهُ خرج فلم يرجع، وأما الطبيب الآخر فإنّ امرأةً أعطته درهمين على أن يصحبها إلى مريضِها، فلما توغّلت به

مضايقَ الطرق خاف وامتنعَ عنها وشنّع عليها فتركت درهميها وفرت هاربة، وأما الطبيب الثالث فإنّ رجلًا استصحبه إلى مريضه في الشارع بزعمه، وكان الرجل في أثناء الطريق يكثّر من الدعاء ويقول: (اليوم يُغتنم الثوابُ ويتضاعفُ الأجرُ ولمثل هذا فليعمل العاملون)، نخاف منه الطبيب ومع ذلك استمر معه، حتى أدخله دارًا خرِبة فزاد خوف الطبيب، وتوقّف في الدرج ولم يصعد، وسبق الرجل فاستفتح، نخرج اليه رفيقه يقول له: هل مع إبطائك حصل صيد ينفع، ففر الطبيب هاربًا، وألقى نفسه إلى إصطبل، فقام إليه صاحب الإصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفا منه أيضا، فقال صاحب الإصطبل: قد علمت حالك فإنّ أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالمكر والخداع ثم يأكلونهم».

« ووجد «بأطفيح» عند عطار، عدة خوابي مملوءة بلحم الآدميّ وعليه الماء والملح فسألوه عن علة اتخاذه والاستكثار منه، فقال: خِفت إذا دام الجدب والجوع أن يهزل الناس.

وكان جماعاتٌ من الفقراء قد آووا إلى «الجيزة» وتستّروا ببيوت طين، يتصيّدون فيها الناس، واكتشف أمرهم وطلب قتلهم فهربوا، فوجدوا في بيوتهم من عظام بني آدم شيء كثير، وخبرني ثقة أنهم وجدوا في بيوتهم أربعمائة جمجمة».

«ومما شاع وسُمع من لفظ الوالي أن امرأة أتته سافرةً مذعورةً تذكر أنها تعمل «داية» تساعد النساء في الولادة، وأنّ قومًا استدعوها وقدّموا لها صحنا فيه لحم وخل مُحكم الصّنعة مكمل التوابل فوجدته كثير اللحم، مختلفًا عن اللّحم المعهود، فتقززت منه ثم وجدت خلوة ببنت صغيرة فسألتها عن اللحم، فقالت أنها فلانةً السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبي وها هي معلقة إربًا، فقامت المرأة إلى خزانة الطعام فوجدتها أنابير لحمٍ فلمّا قصّت على الوالي القصة أرسل معها من هجَم الدار وأخذ من فيها.....».

«ومن غريب ما حدث من ذلك، أن امرأةً ذات مالٍ ويسار كانت حاملا وزوجها غائب في الخدمة وكان يجاورها صعاليك، فشمت عندهم رائحة طبخ فطلبت منه كما هي عادة الحبُالى فالفته لذيذا فاستزادتهم، فزعموا أنه نفذ فسألتهم عن كيفية عمله فأسروا إليها أنه لحم بني آدم فاتفقت معهم على أن يتصيدوا لها الأطفال وتُجزلُ لهم العطاء فلما تكرر ذلك منها فضرِيَت وغلَبت عليها الطِّباع السبعية، أخبرت جواريها الوالي بما تصنع، فهجم الجند عليها فوجدوا عندها من اللّحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك فحُبست مقيدة وأرجئ قتلها احتراما لزوجها وإبقاءً على الولد في جوفها.



ولو أخذنا نقص كل ما نرى ونسمع؛ لوقعنا في التهمة أو في الهذر، وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه، وإنّما هو شيء صادفناه اتّفاقا، بل كثيرا ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره.

وأما من يتحين ذلك بدار الوالي فإنه يجد منه أصنافا تحضر مع آناء الليل والنهار، وقد يوجد في قدرٍ واحدة اثنان وثلاثة وأكثر، ووجد بعض الأيام قِدر فيها

عشر أيد كما تُطبخ أكارعُ الغنم، ووجد مرة أخرى قِدر كبيرة وفيها رأسٌ كبيرٌ وبعض الأطراف مطبوخا بقمحٍ وأصنافٍ من هذا الجنس تفوت الإحصاء».

« وأما من خرج من أهله فلم يرجع إليهم فخلقٌ كثير وحكى لي من أثق به أنه مر على امرأةٍ وبين يديها ميت قد أنتفخ وتفجر وهي تأكل من أفخاده فأنكر عليها فزعمت أنه زوجها، وكثير ما يدّعي الآكل أن المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك، ورأوا مع عجوز طفلًا تأكله فاعتذرت بأن قالت إنّما هو ولد ابنتي وليس بأجنبي منّي ولإن آكله خير من أن يأكله غيري.

وأشباه هذا كثير جدًا حتى أنك لا تجد أحدا في ديار مصر إلّا وقد رأى شيئا من ذلك، حتى أرباب الزوايا والنساء في خدورهن».

« ومما شاع أيضا نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحمهم، وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس فيها بلد إلّا وقد أكل فيه الناس أكلا ذريعا....

وخبرني بعض أصحابي وهو تاجر مأمون حين ورد من الإسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك، وأعجب ما حكى لي أنه عاين أرؤس خمسة صغارٍ مطبوخة في قدر واحدة بالتوابل الجيدة،

وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كافٍ فإني وإن كنت قد أسهبت أعتقد أني قد قصّرت» أهـ

لقد مات الناس جوعًا، حتى أن أعدادهم قد فاقت الحصر، فمتى يسير المرء يرى جثث الموتى ملقاة في كل مكان، فكان يُرفع من الموتى كل يوم من القاهرة وحدها إلى الميضأة ما بين مائة إلى خمسمائة، وأما باقي مصر فليس لموتاها عدد ويُرمَونَ ولا يوارون، ثم عجز الناس عن رميهم فبقوا في الأسواق بين البيوت والدكاكين، وربما وجدت الميت قد تقطع وإلى جانبه الشوّاء والخبّاز ونحوه.

قال أحد الرواة: « دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيوانًا في الأرض ولا طائرًا في السماء فدخلنا البيوت، فوجدنا أهلها كما قال الله عز وجل: ﴿ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥] فتجد ساكني كل دار موتى فيها: الرجل، وزوجته، وأولاده.

يقول الراوي: ثم انتقلنا إلى بلدٍ آخر ذكروا لنا أنه كان فيه أربعمائة دكّان للخياطة فوجدناها كالتي قبلها في الخراب، وأن الخياط ميتٌ وأهله موتى حوله،

فحضرني قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩]، يقول أيضًا: ثم انتقلنا إلى بلد آخر فوجدناه كالذي قبله ليس به أنيسٌ وهو مشحونٌ بموت أهله، واحتجنا إلى الإقامة بهذا البلد لأجل الزراعة؛ فاستأجرنا من ينقلُ بعض الموتى مما

حولنا إلى النيل، كلّ عشرةٍ موتى بدرهم، ولكن قد امتلأت البلاد بالذئاب والضباع تأكل لحوم أهلها».

مجاعة الموصل:

(١٩١٧:١٩١٨): مدينة الموصل هي إحدى مدن العراق الكبرى، ولها تاريخ عريق، بعد سقوط بغداد في أيدي الجيش البريطاني عسكر الجيش العثماني عند مدينة الموصل للدفاع عنها، ولكن..

من أين يحصل الجيش العثماني على قوته وغذاءه؟

اعتمد هذا الجيش العثماني الكبير في غذاءه وقوته على الموصل.

هذا العام في الموصل كان موسمًا زراعيًا رديئًا، فكان قليل المحاصيل، وساد المنطقة مناخًا سيئًا شديد البرودة مع تساقط موجات من الثلوج، أدت إلى موت أعداد من الحيوانات كثيرة، وتلفت المحاصيل.

وفي هذه الفترة هاجر إلى الموصل أعداد كبيرة من الأرمن والأكراد.

فهل تستطيع الموصل وحدها أن تمد كل هؤلاء بالغذاء: الجيش العثماني، والمهاجرين الأرمن والأكراد، وسكانها الأصليين؟

ازداد الطلب على القوت والغذاء مع قلة المعروض؛ أدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار والغلاء الفاحش مع ندرة الغذاء، الضابط بالجيش العثماني «محمد باشا العمري» انتبه إلى هذه الكارثة الخطيرة، يقول «العمري»:



أنه كتب تقريرًا الى القائد «خليل باشا» أشار فيه الى الخطر الذي سينشأ في « الموصل» من جراء قلة الحبوب، وضرورة الاستعداد لجلب المؤن اللازمة من «اسطنبول» قبل فوات الاوان، فلم يكترث «خليل باشا» لهذا التحذير وقال أن «الموصل» هي مستودع تموين العراق وليست هي في حاجة الى تموين يجلب اليها من الخارج.

اشتد الأمر سوءًا، ولم يجد الناس ما يسد جوعهم، فظهر الجياع في الطرقات، والشوارع، والأزقة، يصيحون في كل مكان من شدة الجوع، يقول «العمري»: « كنت أرى الفقراء والمساكين يطوفون بالشوارع والأزقة من الصبح حتى الغروب ويستغيثون...: «خاطر الله جوعان»! ...وفيهم من لم يتمكن من المشي للتسول فينبطح على قارعة الطريق طلبا للمساعدة من كل المارّين والعابرين» أهـ.

وكان من الناس من لم يتحمل الجوع فينتحر، يقف أحدهم على مكان عالٍ ويلقي بنفسه، أو ربما ألقى أحدهم نفسه في النهر.

ومع اشتداد الجوع تكونت عصابات منظمة للسطو على مخازن الغلال ومستودعات الغذاء، وكثر السلب والنهب.

وصار الناس من شدة الجوع يتساقطون موتى في كل مكان.

يقول عبد العزيز القصاب في مذكراته:

«...بقيتُ في مركز« دمير قبو » سبعة أيام، ثم تحركت قافلة السيارات فوصلنا إلى «الموصل» مساء ذلك اليوم، وقد رأيتُ جثث الأموات منتشرة على طول الطريق بصورة تفتت الأكباد......



كنتُ أثناء مكوثي في الموصل أطوف بشوارع المدينة وأزقتها؛ لأكوّن فكرة عن وضعها وحالاتها فكنتُ أشاهد فقراءها والمهاجرين إليها.... وهم بصورة مزرية رجالًا ونساء منتشرين في الطرق والأسواق، والبعض منهم يختفون تحت دكاكين البقالين والخبازين؛ يتصيدون المشترين؛ فما أن يشتري المشتري لوازمه من الدكان خبزًا أو سمنا أو غير ذلك ويدفع ثمنها، حتى يخرجوا من تحت الدكاكين ويهاجموه ويسلبوه كل ما اشتراه، وكان بعض هؤلاء الجياع بعد أن ينهبوا الخبز مثلا يتعاركون فيما بينهم، ويغتصب كل واحد منهم اللقمة من فم رفيقه، ويدخلها إلى فمه بطريقة لم أرَ مثلها طول حياتي.

ولكثرة هؤلاء المساكين كنتُ أشاهد مأموري البلدية ومعهم الحمالين يتجولون في الطرق وفي الأسواق؛ يجمعون جثث الميتين جوعًا في كل صباح ومساء، كأنما يجمعون الحطب والنفايات.

يضع الحمّال في سلته أربع جثث أو خمس؛ حيث أن جثة الإنسان أو المرأة كانت يابسة ضعيفة، وقد استحالت إلى عظم وجلد يلتقطها الحمال بيده من الأرض ويلقيها في السلة على ظهره كما يلتقط الخشبة الصغيرة.

لقد أصر عليّ يومًا المرحوم «عبد الحكيم أفندي الهيتي» إمام العسكرية بتناول طعام العشاء معه في الجامع الكبير في الموصل، وكان الجامع حينذاك مستشفى عسكريًّا كان هو مديره، وبعد إصراره الشديد قبلتُ الدعوة، وذهبتُ مع خادمي «مبروك» إلى الجامع بعد غروب الشمس، وكانت السماء ممطرة حينذاك، وكنتُ أتقي المطر بمظلة كانت معي و« مبروك » يحمل الفانوس ويسير أمامي في الطريق.

شاهدتُ على باب كل دار من دور «الموصل» التي مررنا بها، شخصين أو ثلاثة كبارًا وصغارًا نساء ورجالًا جالسين تحت ذروة الابواب يئنُّون من البرد، فلا يلقون مَن يرحمهم أو يحن عليهم أو يدخلهم إلى داره. وكان هذا المنظر من أوجع المناظر التي رأيتها في الموصل»، ا هـ.

لجأ الناس من شدة الجوع إلى أكل القطط والكلاب يقول الشاعر إبراهيم الواعظ: « المجاعة بلغت حدًا جعل الكثيرين يأكلون لحم الكلاب والقطط كما شربوا دم الذبائح...وشاهدت بأم عيني هرًا يهرب راكضًا من دار الى آخر، والناس يركضون ورائه حتى أمسكوا به وأكلوه» اهـ.

لجأ الناس إلى أكل الجيف والميتة، وكثيرًا ما كان الرجال والنسوة الفقراء يتسابقون الى جمع جثث الحيوانات النافقة؛ ليقطعوا من لحومها، ويضعوها في أكياس، ويعودوا الى بيوتهم بكل بهجة وسرور؛ ليطبخوا فيسدوا رمقهم تخلصا من الجوع.

قال «روفائيل بطي»: « رأيت بأم عيني جماعة من المهاجرين الذين رحلوا إلى الموصل... يتكالبون على تقطيع أشلاء بغل نافق جروه من الشارع »، اهـ.

يقول أحد الرواة: « تحلق حول جيفة زهاء خمسين جائعًا»، ومع شدة الجوع وآلامه بدأ الناس يخطفون الأطفال من الشوارع ويطهونهم ويأكلونهم، ومن ذلك تلك الحادثة الشنيعة التي حدثت في هذه المجاعة «بيع لحوم الأطفال».

بيع لحوم الأطفال:

«قلية» تلك الوجبة التي اشتهر بها مطعم «عبود» وزوجته وقت مجاعة الموصل، وجبة من اللحوم المقلية التي تقدم للزبائن بالمطعم، الناس يتساءلون فيما بينهم: كيف يحصل عبود على هذه اللحوم وسط هذه المجاعة القاتلة؟

ومن أين يأتي بها؟ إنه يحصل على اللحوم كل يوم منذ عدة أشهر، والناس يموتن جوعًا،

ارتاب الناس في أمر «عبود» وزوجته فأبلغوا الشرطة.

حضرت الشرطة واكتشفت أمر الزوجين السفاحين، فقد وجدوا في بيتهم عظامًا بشرية،

سيق «عبود» وزوجته إلى المحكمة، وهناك انهارت الزوجة واعترفت أمام الحاكم بما اقترفت هي وزوجها من الفظائع.

وإليك نص المحاورة التي جرت بين زوجة عبود بعد اعترافها وبين الحاكم حسبما ذكرته مجلة «علمدار» التركية في ذلك الوقت: الحاكم: كيف أقدمتما على هذا العمل؟

المرأة: جعنا واحتملنا الجوع إلى حد لا يطاق، فاتفقنا أخيرًا على أكل الهرة، وهكذا كان، وبقينا نصطادها ونأكلها إلى أن نفدت، فبدأنا نأكل الكلاب ونفدت أيضًا وكان لحمها أطيب وأشهى من لحم الهرة، فجربنا أكل لحوم البشر.

الحاكم: بمن بدأتما أولا؟

المرأة: بامرأة عجوز خنقناها وطبخناها في قدر كبير، إلا أننا قضينا كل تلك الليلة نتقيأ لأن لحمها كان دسمًا، ثم ذبحنا ولدًا صغيرًا فوجدنا لحمه في غاية اللذة والجودة.



الحاكم: وكيف كنتم تصطادون الأولاد؟

المرأة: بواسطة ابننا، كان يأتي كل يوم بواحد بحيلة اللعب معه، فنخنقه ونأكله وندفن عظامه في هوة عميقة حفرناها داخل بيتنا.

الحاكم: كم ولدًا أكلتما؟

المرأة: لا أذكر تمامًا ولكن يمكن إحصاءهم من عدد الجماجم في الحفرة» أهـ.

عزيزي القارئ: أعتذر إليك عن تلك السطور المؤلمة التي سردتها عليك عن تلك المجاعات، ولكن.. فلتعلم عزيزي القارئ أن هذا قليل من كثير، وفيض من غيض، وما منعني أن أسهب في سرد المجاعات إلا رأفة بك وشفقة عليك لأنها تدمي القلب وتجرح الفؤاد وتزيد الإنسان غمًا بغم، ولكن.. كان لا بد أن أسرد طرفًا منها لتعلم وحشية الجوع وخطورته، ولكن.. يخيل إلي أنك تتمتم بكلمات قائلًا: إن هذه المجاعات كانت في الأزمنة الماضية، ولا علاقة لنا بها الآن، ولا يمكن أن نرى مشهدًا من هذه المشاهد المؤلمة الآن، ولا نرى جائعًا قد افترسه الجوع.

أخي الكريم: أعطني أذنك لأهمس فيها قائلًا:

قد رأينا في زماننا هذا على شاشات الفضائيات والإنترنت مشاهدًا وصورًا لإخواننا الذين أصابتهم المجاعات أغرب من الخيال.



أغرب من الخيال:

عندما تقرأ أو تسمع عن الجوع والمجاعات قديمًا، يسيطر على عقلك هذا السؤال: لماذا لم يَهِب النّاس لنَجدتِهم؟

وكيف تركوهم يعانون آلام الجوع ومرارته؟

أحيانًا نلتمس لهم العذر فنقول: لعلّ النّاس قديمًا لم يسمعوا بأصحاب المجاعة لصعوبة التواصل.

أو لعلّهم سمعوا بهم ولم يستطيعوا إرسال المساعدات لصعوبة المواصلات.

أو لعلّ اختلاف الدين والعقيدة منعهم مِن نَجدتِهم

أو لعلّ قِلّة الغِذاء جعلهم يضنون بما في أيديهم،

ولكن..

عندما يسْهُل التواصُل، وتكْثُر المواصلات، ويتوافر الغذاء، وتوجد رابطة الدين، فما عذر المسلم أنْ يترك أخوه المسلم يموت جوعًا؟

ماذا نقول لرَبِّنا حينما نلقاه؟

وبِمَ نُجيبه؟

لقد شاهدنا وشاهد العالم مقاطعًا وصورًا لمسلمين جوعى يشيب لها الوِلْدَان؟

رأينا أطفال مسلمين يموتون جوعًا؛ لأنّهم لم يجدوا علبة الحليب.



ورأينا طفلًا يبكي ويتلوى مِن ألَمِ الجوع، وأطفالًا جوعى خرجوا جميعًا على الشاشات يسترحِمون العالم، ويستعطفونه، ويهتفون للعالم قائلين: نريد طعامًا.. نريد طعامًا.

ورأينا أمهاتٍ ضاقت حِيلَتهن، يحملن الرضَّع بين أيديهن، ويناشدن العالم باسم الإنسانية، ويناشدن المسلمين قائلات: أين أنتم يا مسلمون؟ أين نَخْوتكم؟ أين رابطة الأخوة والدين؟

أين الرحمة؟ أطفالنا يموتون من الجوع.

ولكن...

لقد أسمعت لو ناديت حيا

ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو نار نفخت بها أضاءت

ولكن أنت تنفخ في رماد

كيف يطعمهم العالم وقد تركهم إخوانهم المسلمون؟

كيف ينظر العالم إليهم بعين الرحمة وقد قسى عليهم المسلمون؟

المسلمون مشغولون بالدنيا وتَرَف العَيش، غير آبهين بِكُن وبأطفالكن.

ورأينا أمًّا وأطفالها يَجْنُون الحشائش - طعام البهائم- ليأكلوها، وأخرى تجمع هي وصغارها الأعشاب من على الأرض ليأكلوها.

ورأينا آباء عجزوا عن توفير الغذاء لأولادهم وضاقت حيلتهم؛ فتركوهم ليلًا أمام أبواب الجمعيات الخيرية... أتدري لماذا؟



حتّى لا يموت ولده أمام عينيه من الجوع أو لعلّ أحد المحسنين يأخذه فيربّيه وبهذا يجد طعامًا وشرابًا ولباسًا ومأوى يأوي إليه، فما فعل الأب ذلك إلا مِن أجل أنْ يعيش ولده ولو بعيدًا عنه.

ورأينا رجلًا يذبح قطةً ويطبخها لأولاده ويقول: شكونا إلى الله المسلمين الذين تخلّوا عنّا.

ورأينا شيوخًا مُمَددين لا يستطيع أحدهم أنْ يُقيم صلبه؛ لأنّ الجوع أنهكهم، حتّى صاروا هياكل عظمية، ورأينا عجوزًا تبكي وتقول: لا نجِد ما نأكله، الجوع ذبَحَنا.

ومات شاب لأنّه أكل من جُثة إنسان ميت متعفِن فتسمم!

ولما سُئل أحدهم: هل أكلتَ القطط والكلاب؟

قال: «أنا الآن على استعداد نفسي كي آكل القطط والكلاب، ويوجد الكثير مِن النّاس مثلي، ويوجد الآن من النّاس مَن يأكل حيوانات لا تُؤْكَل».

ويقول آخر:

« تَمَّ أخيرًا ذبْح آخر حمار صغير في البلدة، وتم بيع سيارة مقابل ٥ كيلو أرز، وبيع سلاح خفيف مقابل علبة بسكويت».

أتدري عزيزي القارئ أين حدثت تلك المشاهد والصور؟

إنّها حدثت في بلد إسلامي وعلى مرأى ومَسمَع من العالم.. إنّها حدثت في سوريا المسلمة، التي اشتدّ عليها الجوع، حتّى أفتى بعض العلماء في بعض المناطق بأكل لحوم القطط والكلاب والحمير!

فبم نقابل الله تعالى؟

وبماذا نجيبه؟!

ومن أصعب ما قرأت وأشده على نفسي، هذا الاختيار المر وتلك اللحظات القاتلة التي عاشتها تلك الأم الصومالية، التي هربت بولديها من مناطق المجاعة، قاصدة مناطق الإغاثة، بدأت المرأة السير في طريقها وهي تحمل ولديها، لعلّها تنجو بهما من الجوع، وفي منتصف الطريق أصابها الجهد والتعب ولم تستطع مواصلة السير، فكان لزامًا أن تترك أحد ولديها يموت على قارعة الطريق لتنجو بالآخر، فوقعت بين خيارين أحلاهما مر، فكان الاختيار القاتل، أيهما تتركه يلقى حتفه؟ وهل يطاوعها قلبها على ذلك؟

هل تستطيع أن تترك ولدها للموت؟

ظلت المرأة حائرة مضطربة، ماذا تفعل؟

ولكن...

لا مفر.. لابد أن تحسم أمرها.

ولك أن تتخيل كم مِيتةً ماتتها المرأة قبل أن تتخذ قرارها.

قررت المرأة أن تترك أكبرهما وتحمل الصغير وتمضي، فانطلقت به، وكلما ابتعدت عن ولدها وسمعت بكاءه، عادت إليه مسرعة تحتضنه وتضمه إليها وهي تبكي، ظلت المرأة على هذه الحال كلما تركته عادت إليه باكية، حتى قررت أن تحسم أمرها وتتركه يلقى مصيره.

وهل وضع المرأة في هذا الموقف الحرج إلا الجوع وقلة الطعام؟

وهل عاشت تلك اللحظات القاتلة إلا بتخلي المسلمين عنها؟.

يقول الشيخ راشد الزهراني: « زرت إفريقيا ورأيت فيها من المجاعة ما لا يخطر على قلب، والله، لقد رأيت طفلًا لم يتجاوز التاسعة يزحف على بطنه باتجاهنا، فظننت أنه مشلول، فقيل إنه لا يستطيع الوقوف على قدميه، لأنه لم يأكل ولم يشرب منذ ثلاثة أيام».

ويقول أحد الدعاة: « أن امرأة لحقت به ومعها ثلاثة من أبنائها وألقت بهم أمام إحدى الجمعيات وذهبت وهي تقول: « سأموت من الجوع ولا أريد أن أرى أبنائي أمامي وهم يموتون ».

ويقول الدكتور عبدالله السُميط -بتصرف-: « عندما زرت أفريقيا أثناء المجاعة، وجدت أطفالًا قد بلغوا العشر سنوات أو أكثر هياكل عظمية تمشي على قدمين، بعضهم يستطيع المشي وبعضهم يحبو حبوًا وأغلبهم لم يأكل منذ ثلاثة أو أربعة أيام».

أخي العزيز: هذا ما صنعه الجوع بالإنسان، جعله يتخلى عن إنسانيته، حتى صار أشبه بسبع مفترس أو بوحش كاسر، تبدأ المجاعة فيأكل الإنسان الأوراق والأعشاب والحشائش، ثم يشتد الأمر فيأكل القطط والكلاب والصراصير والحشرات والفئران، ثم يزداد الأمر سوءًا فيأكل الميتة، ثم يستفحل الأمر فيأكل الناس بعضهم بعضا، يأكل الإنسان لحم أخيه الإنسان، فهل نترك الجياع حولنا حتى يأكل بعضنا بعضًا؟
تعال لنطوف سويًّا في بستان الشرع لنتعلم كيف نتعامل مع الجوعى؟
و نعرف كيف كان سلف الأمة يتعاملون مع الجياع؟
هيا إلى قارب النجاة.

ثالثًا: قارب النجاة

إطعام الطعام:

إنه لمن العار على البشرية جمعاء أن نسمع بيننا كلمة: «مات جوعًا»، ربما يحدث هذا بين الحيوانات العجماوات ووسط الغابات، أما أن يحدث هذا بين الناس وخاصة المسلمين منهم، يكون هذا «وصمة عار» لا تمحى على مر الأيام والسنين، لذلك تجد في ديننا الحنيف من الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب ما لو طُبِق لما كان جائع على وجه الأرض، فرض الزكاة للفقراء والمساكين، وشرع الصدقات، ومنع كل طريق تؤدي إلى احتكار الطعام، أو التضييق على الناس في أقواتهم، ورهب وأنذر من منع الطعام عن الجائع فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

«ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم اللهُ ولا ينظُرُ إليهم...... ورجُلٌ منع فَضْلَ الماءِ يقولُ اللهُ: اليومَ أمنَعُك فضلي كما منَعْتَ فضْلَ ما لم تعمَلْه يداكَ»؛ (صحيح ابن حبان).

وحذرنا من النار فقال صلى الله عليه وسلم: « اتَّقوا النَّار ولو بشِقِّ تمرةٍ »؛ (صحيح ابن حبان).

وجعل عدم إطعام المسكين سببًا في دخول النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٤].

ورغب الشرع في إطعام الطعام، ورتب عليه الأجور العظام، وحثنا على أن نتفقد جيراننا ونسأل عن أحوالهم، ونبحث عن الفقراء والمساكين أينما كانوا ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]، وقال تعالى:

﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

فما القانع والمعتر؟

القانع: الفقير الذي لا يسأل الناس، تقنعًا، وتعففًا.

المعتر: الفقير الذي يتعرض للناس بالسؤال والطلب.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: ٩٥]، فجعل من الكفارات إطعام المساكين.

ورغب في الإطعام وقت الجوع الشديد والمجاعات قال تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤]

(مسغبة: مجاعة)، ولكن.. لماذا نطعم غيرنا؟ ولماذا نعطيهم من قوتنا؟ نطعم ابتغاء وجه الله، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الانسان: ٩-١٠].

نطعم ليكون ذخرًا لنا في الآخرة، فقد روت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «أنَّهم ذبحوا شاةً فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ما بقيَ منْها؟ قلت ما بقيَ منْها إلَّا كتفُها. قالَ: بقيَ كلُّها غيرَ كتفِها»؛ (صحيح الترمذي).

إنك تطعم زوجتك وتنال الأجر من الله: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حتَّى ما تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ»؛ (صحيح البخاري).

إنها لقمة واحدة تضعها في فم زوجتك تؤجر عليها، فكيف بمن يطعم جوعان؟



كيف لو كانت لأسرة فقيرة تفترش الأرض وتلتحف السماء؟

كيف لو كانت لمحروم؟

وما هو جزاء من يواسون المحتاجين، ويعينون الفقراء، ويمدون المعدمين ببعض الخبز، وببعض الدقيق والزيت، وحبات الأرز، والقليل من الحساء، والقليل من المرق ومذقة اللبن، والقليل من الطعام؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَن تَصدَّقَ بعَدْلِ تَمْرَةٍ مِن كَسْبٍ طَيِّبٍ، ولَا يَقْبَلُ اللَّهُ إلَّا الطَّيِّبَ، وإنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ».

قالت عائشة رضي الله عنها: «جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فأطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فأعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ منهما تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إلى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بيْنَهُمَا، فأعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَقالَ: إنَّ اللَّهَ قدْ أَوْجَبَ لَهَا بهَا الجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بهَا مِنَ النَّارِ»؛ (صحيح مسلم).

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ في الجنةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُها من باطِنِها، وباطِنُها من ظَاهِرِها. فقال أبو مالكٍ الأَشْعَرِيُّ: لِمَنْ هي يا رسولَ اللهِ؟ قال: لِمَنْ أَطَابَ الكَلامَ، وأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وباتَ قائِمًا والناسُ نِيامٌ»؛ (صحيح الترغيب).

ولأجل هذا الفضل العظيم لإطعام الطعام سارع عباد الله الأبرار بإطعام الطعام قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الانسان: ٨]، يحبون



الطعام ومع ذلك يطعمونه إخوانهم ويفضلونهم على أنفسهم، وربما كان أحدهم في أشد الحاجة لهذا الطعام ولكنه يؤثر إخوانه على نفسه.

الإيثار:

يقول الدكتور عبدالله السُميط -بتصرف-: « عندما ذهبنا إلي إحدى قرى المجاعة في أفريقيا، وقفنا بجوار كوخ من الأكواخ، وعلمنا أن صاحبة الكوخ أم وأطفالها ومعها أقاربها لم يأكلوا منذ أربعة أيام، فأسرعت إحدى بناتي إلى السيارة؛ لتجلب لهم كيسًا من الدقيق تعطيه إياهم، فاندهشت المرأة صاحبة الكوخ وقالت: لماذا تعطوني هذا الدقيق؟

قلنا: أنتِ وأولادك وأقاربك لم تأكلوا منذ أربعة أيام.

قالت: الحمد لله، نحن لم نأكل منذ أربعة أيام فقط، نحن أغنياء وغيرنا فقراء في أشد الحاجة، اذهبوا واعطوه للكوخ الذي خلفنا، فإنهم

أحق به منا.

فذهبنا إلى الكوخ الذي خلفهم، فوجدنا فيه امرأة وأهلها لم يأكلوا منذ ثمانية أيام».

عزيزي: المرأة لم تأكل هي وأهلها منذ ثمانية أيام، فهل يتحمل أحدنا الجوع يومين؟

إن أحدنا إذا أتم صيام يوم يشعر وكأنه فارس في الميدان أو أشجع الشجعان أو هازم التتار.. فما بالك بمن لم تذق طعامًا ثمانية أيام!

لله درك أيتها المرأة!



لقد تضاءلت الرجولة بجوارك، حتى صارت كالعصفور الصغير، لقد أثبتِ أن الرجولة ليست الذكورة، وأن الرجولة مواقف وبطولة، فكم من نساء وقفن مواقف الأبطال، وكم من ذكور ارتدوا لباس الخزي والعار.

فكم تساوي هذه المرأة من مخنثي زماننا؟

إن من ذكور أمتنا الآن من يهرب من صيام رمضان، يعجز عن صيام سويعات قليلة، فيختلق العلل والأعذار، وهذه امرأة فاقت في تحملها الرجال.

ولا أدري أأعجب من هذه المرأة أم أعجب من سابقتها، التي رفضت أن تأخذ كيس الدقيق وآثرت غيرها على نفسها ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، رفضت الطعام وهي تعلم أنها ربما هلكت من الجوع، أو ربما لم تر الطعام مرة أخرى، فهل هناك من هو أصدق وأخلص ممن يؤثر حياتك على حياته؟

أُسدٌ ولكن يؤثرون بزادِهم

والأُسد ليس تدينُ بالإِيثَارِ

يتزيَّنُ النَّادي بحسنِ وجوهِهم

كتزيُّنِ الهالاتِ بالأقمارِ

يقول أحدهم: «لا توَاكِلَنَّ جائعًا إلَّا بالإِيثَار...»

وقال أبو سليمان الدَّاراني: «لو أنَّ الدُّنْيا كلَّها لي فجعلتها في فم أخ مِن إخواني لاستقللتها له».





وقال أيضًا: « إِنِّي لأَلقم اللُّقمة أخًا مِن إخواني فأجد طعمها في حلقي».

إن هذه المرأة كانت في أشد الحاجة إلى الطعام، ولكنها آثرت غيرها على نفسها، إنها صنعت صنيعًا عجب الله من مثله.

عجب اللّه من صنيعكما:

الرجل قد وقع بين براثن الجوع والفاقة، وقد أخذ الجوع منه مأخذه حتى أنهكه، فلم يترك له فضل قوة يتقوى بها، ولا يجد فتات طعام يسد به رمقه، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: « إني مجهود » (أي متعب من شدة الجوع والحاجة)

فَرَقّ النبي صلى الله عليه وسلم لحاله وأسرع لينقذه من بين أنياب جوعٍ قاتل.

فرؤية الرجل على هذا الحال ترق لها القلوب وإن كانت أقسى من الحجر، وتدمع لها العيون وإن جمدت جمود الصنم، فما بالك إذا كان الذي رآه هو النبي اليتيم، صاحب القلب الرحيم الذي وسعت رحمة قلبه العالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، أرسل النبي إلى نسائه يسألهن عن طعام يقدمه لهذا الفقير المعدم، فقالت كل واحدة منهن: « والَّذي بعَثك بالحقِّ نبيًّا ما عندي إلَّا ماءٌ ».

بيت النبوة ما به غير ماء!

والنبي صلى الله عليه وسلم يريد أن ينقذ الرجل ويطعمه وليس عنده شيء.. فماذا صنع النبي؟

قال صلى الله عليه وسلم للصحابة: « مَن يُضيِّفُ هذا اللَّيلةَ رحِمه اللهُ ».

فقال أبو طلحة الأنصاري: « أنا يا رسولَ اللهِ».



أخذ أبو طلحة الرجل وانطلق به إلى بيته فرحًا مسرورًا وكأنما توّجُوه ملكًا.. ولم لا يفرح وقد أخذ ضيف رسول الله ﷺ؟!!

دخل أبو طلحة على زوجته وبشائر الفرحة على قسمات وجهه وقال لها: « أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم»

قالت زوجته: «ما عِنْدَنَا إلَّا قُوتُ صِبْيَانِي».

(أي: ليس عندَهم إلَّا عَشاءُ تلك اللَّيلةِ الَّذي يَكْفي أطْفالَهم فقطْ)

عزيزي القارئ: ضع نفسك مكان الأنصاري، أولادك جوعى وضيفك جائع وليس لديك من الطعام ما يكفيهم، إن أكل الأولاد لم يجد الضيف، وإن أكل الضيف لم يجد الأولاد.. فماذا أنت صانع؟

هذا موقف يؤدي إلى القلق والاضطراب، والحيرة والتردد.

والعجيب أن الأنصاري رضي الله عنه لم يقلق ولم يترد بل كان قراره حاسمًا.. فقال لزوجته: «هَيِّئِي طَعامَكِ» لكي نقدمه للضيف،

« وأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، ونَوِّمِي صِبْيَانَكِ إذَا أرَادُوا عَشَاءً».

قامت المرأة فأوقدت سراجها ونوّمت صبيانها بغير عشاء، وبهذا خرج الأنصاري من هذا المأزق وآثر الضيف على أولاده،

ولكن.. بقي مأزق آخر، كيف سيأكل الرجل وزوجته مع الضيف والطعام قليل لا يكفي غير الضيف؟!!

وهل سيتركون الضيف يأكل وحده وفي ذلك حرج له؟

قدَّمَتِ الزوجة الطَّعامَ للضَّيفِ، ثمَّ قامَتْ كأنَّها تُصلحُ سِراجَها فأطْفأَتْه عن قَصدٍ فأظلَمَتِ البيَتَ، فجَعَلا يتظاهَرانِ أنَّهما يأْكُلانِ بتَحْريكِ أسْنانِهما، ومدِّ أيْديهما؛ حتَّى يأكُلَ الضَّيفُ منَ الطَّعامِ حاجَتَه، وحتَّى لا يَشعُرَ أيضًا بقِلَّةِ الطَّعامِ، فباتَا الزَّوْجانِ «طاوِيينِ»، أي: جائِعينِ مِن غَيرِ عَشاءٍ.

وبهذا قد آثر الأنصاري ضيفه على نفسه وأهله.

فلمَّا كان الصباح ذهَب الأنصاري إلى رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فقال له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم:

«لقد عجِب اللهُ مِن صنيعِكما اللَّيلةَ»، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقيل أيضًا: أن سبب نزول هذه الآية، أُهْدِيَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَأْسُ شَاةٍ، فَقَالَ: إِنَّ أَخِي فُلانًا وَعِيَالَهُ أَحْوَجُ إِلَى هَذَا مِنَّا، فَبَعَثَ رأس الشاة إِلَيْهِ، فلما أخذها الآخر قال: إِنَّ أَخِي فلانًا وعِيالَه أَحْوَجُ إِلَى هَذَا مِنَّا، فَلَمْ يَزَلْ يَبْعَثُ بِهِ وَاحِدٌ إِلَى آخَرَ وكل يقول: إِنَّ أَخِي فُلانًا وعِيالَهُ أَحوجُ إِلَى هَذَا مِنَّا، حَتَّى تَدَاوَلَتْهَا سَبْعَةُ أَبْيَاتٍ حَتَّى رَجَعَتْ إِلَى الأَوَّلِ.

اجتمع عند أبي الحسن الأنطاكيّ نيّف وثلاثون رجلا بقرية من قرى الرّيّ، ومعهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهم، فكسروا الرّغفان، وأطفئوا السّراج، وجلسوا للطّعام، فلمّا رفع الطعام فإذا الطّعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئا، إيثارا لصاحبه على نفسه.



فهل مجتمع فيه مثل هؤلاء يكون بينهم جائع أو عارٍ؟

فلم لا نتشبه بهم؟

لقد وصل الحال بأحدهم أن يؤثر الحيوان على نفسه؟

الغلام الأسود:

خرج عبد الله بن جعفر إلى أرض له، فنزل على بستانٍ لقوم، وفي هذا البستان غلام أسود يعمل فيه، قوت الغلام كل يوم ثلاثة أرغفة، يمنحها سيده إياه، أتى الغلام بالطعام، فدخل البستان كلبٌ واقترب مِن الغلام، فرمى إليه الغلام برغيف فأكله، ثمَّ رمى إليه الثَّاني والثَّالث فأكله، وعبد الله جالس بجانب ينظر إليه.

فقال عبد الله: يا غلام، كم قوتك كلَّ يوم؟

قال الغلام: ما رأيت (أي ثلاث أرغفة).

قال عبدالله: فلِمَ آثرت به هذا الكلب؟!

قال الغلام: إن هذه الأرض ليست بأرض كلاب، وإنَّ هذا الكلب جاء مِن مسافة بعيدة جائعًا، فكرهت أن أشبع وهو جائع.

قال عبدالله: فما أنت صانع اليوم في طعامك؟!

قال: أطوي يومي هذا (أي أبيت جائعًا حتى اليوم التالي).

فقال عبد الله بن جعفر: يلومني الناس على السَّخاء! إنَّ هذا الغلام لأسخى منِّي.

فاشترى عبد الله البستان والغلام وما فيه مِن الآلات، فأعتق الغلام ووهبه منه.

فهكذا يتعاملون مع الحيوان الجائع؟

فلماذا لا نسير على خطاهم؟

ولماذا لا نهتدي بهديهم؟

ابن عمر:

كان ابن عمر إذا رأى مسكينًا أو فقيرًا يؤثره على نفسه بالطعام، وإن كان الطعام الذي بين يديه من أحب الطعام إليه وأشهاه إلى نفسه.

عن نافع – بتصرف -:« أن ابن عمر اشتهى عنبا وهو مريض، يقول نافع: فاشتريت له عنقودا بدرهم، فجئت به فوضعته في يده فجاءه سائل فقام على الباب فسأل.

فقال ابن عمر: يا نافع ادفعه إليه في يده.

قال نافع لابن عمر: كل منه، ذقه.

قال ابن عمر: لا، ادفعه إليه، فدفعته إليه.

قال نافع: فاشتريته من السائل بدرهم فجئت به إلي ابن عمر فوضعته في يده، فعاد السائل، فقال ابن عمر: ادفعه إليه.

قال نافع لابن عمر: ذقه، كل منه.

قال ابن عمر: لا، ادفعه إليه فدفعته. يقول نافع: فما زال يعود السائل ويأمرني ابن عمر بدفعه إليه حتى قلت للسائل في الثالثة – أو الرابعة -: ويحك ما تستحيي؟

ثم اشتريت العنقود من السائل بدرهم وجئت به إلي ابن عمر فأكله ».



وذات مرة اشتهى سمكًا، فطلبت له صفية امرأته، فأصابت له سمكة، فصنعتها فأطابت صنعها ثم قربتها إليه.

سمع ابن عمر نداء مسكين على الباب، فقال: ادفعوها إليه.

فقالت صفية: أنشدك الله لما رددت نفسك منها بشيء، فقال: ادفعوها إليه.

قالت صفية: نحن نرضيه منها.

قال ابن عمر: أنتم أعلم.

فقالوا للسائل: إن ابن عمر قد اشتهى هذه السمكة.

فقال السائل: وأنا والله اشتهيتها، فماكسهم حتى أعطوه دينارًا ويترك السمكة.

قالت صفية لابن عمر: لقد أرضيناه. قال ابن عمر للسائل: قد أرضوك ورضيت وأخذت الثمن.

قال السائل: نعم،

قال ابن عمر لأهله: ادفعوا السمكة إليه.

وهكذا كان ابن عمر رضي الله عنه رحيمًا بالمساكين والفقراء وكثير العطف عليهم، فلا يكاد يأكل طعامًا إلا مع فقير أو مسكين أو يتيم.

وكان يجمع أهل بيته كل ليلة على قصعة، فإذا سمع نداء مسكين قام إليه وأعطاه نصيبه من اللحم والخبز.



وكان إذا تغدي أو تعشى دعا من حوله من اليتامى، فتغدى ذات يوم فأرسل إلى يتيم فلم يجده، وكانت له سويقة «مشروب» محلاة يشربها بعد غدائه، فجاء اليتيم وقد فرغوا من الغداء وبيد ابن عمر السويقة يشربها فناولها لليتيم وقال: خذها فما أراك غبنت.

ومن كثرة إيثار ابن عمر للفقراء والمساكين واليتامى على نفسه؛ ضعف بدنه ونحل جسمه، وقد أشفق البعض ممن حوله على ذلك، فعاتبوا امرأته،

فدخل عليه« ابن مطيع» يعوده فرآه قد نحل جسمه.

فقال لـ «صفية» زوجة ابن عمر: أما تلطفين بهذا الشيخ فتصنعي له طعامًا لعله يرتد إليه جسمه؟

قالت: فما أصنع به، لا نصنع له طعاما إلا دعا عليه من يأكله،

وكلما ذهب إلى المسجد قعد المساكين في طريقه، فيأتي بهم إلى البيت فيؤثرهم بالطعام على نفسه.

وصنعت زوجته «صفية» له طعامًا، ثم ذهبت إلى المساكين الذين يجلسون في طريقه إلى المسجد وأطعمتهم وقالت لهم: لا تجلسوا في طريق ابن عمر وإن دعاكم إلى الطعام لا تجيبوه، فذهب ابن عمر إلى المسجد ولما عاد وضعوا له الطعام فقال لهم: أرسلوا إلى فلان وفلان (أسماء ألمساكين الذين يجلسون في طريقه)، فأرسلوا إليهم فلم يحضروا، ففطن ابن عمر لذلك، فقال لأهل بيته أردتم ألا أتعشى الليلة، ولم يتعش تلك الليلة لأن المساكين لم يأكلوا معه.



الربيع والدجاجة:

مرض الربيع بن خثيم «بالفالج» والفالج: «شَلَلٌ يصيبُ أَحد شِقَّي الجسم طولًا» فطال وجعه فاشتهى لحم دجاج، فكف نفسه أربعين يومًا.

ثم قال لامرأته: اشتهيت لحم دجاج منذ أربعين يومًا فكففت نفسي رجاء أن تكف فأبت.

فقالت له امرأته: سبحان الله وأي شيء هذا حتى تكف نفسك عنه؟ قد أحله الله لك.

فأرسلت امرأته إلى السوق فاشترت له دجاجة بدرهم ودانقين فذبحتها وشوتها واختبزت له خبزًا له أصباغ، ثم جاءت «بالخوان» حتى وضعته بين يديه، والخوان: «ما يُوضع عليه الطَّعام وأدواته».

فلما ذهب الربيع ليأكل قام سائل على الباب.

قال السائل: تصدقوا عليّ بارك الله فيكم.

فكف الربيع عن الأكل وقال لامرأته: خذي هذا فلفيه وادفعيه إلى السائل. فقالت امرأته: سبحان الله. فقال الربيع: افعلي ما آمرك.

قالت زوجته: فأنا أصنع ما هو خير له وأحب إليه من هذا.

قال الربيع: وما هو؟

قالت زوجته: نعطيه ثمن هذا الدجاج وتأكل أنت «الدجاج» شهوتك.

قال الربيع: قد أحسنتِ ائتيني بثمنه.

فجاءت بثمن الدجاجة والخبز والأصباغ

فقال لزوجته: اعطي السائل الجميع: الثمن، والدجاجة، والخبز، والأصباغ.

وقيل أن الربيع قال لأهله: اصنعوا لي خبيصًا، والخبيص: «الحلْواء المخْبُوصة من التمر والسَّمن»، وكان الربيع يكاد لا يشتهي عليهم شيئًا، فصنعوه له.

فأرسل الربيع إلى جار له مصاب «بالجنون»؛ ليطعمه الحلواء.

فكان الرجل يأكل الحلواء ولعابه يسيل.

فقال أهل الربيع له: ما يدري هذا ما يأكل.

فقال الربيع: لكن الله عز وجل يدري.

الرغيف المبارك:

سأل مسكين عائشة رضي الله عنها أن تعطيه صدقة، وكانت صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف.

فقالت لجارية لها: اعطيه الرغيف.

فقالت الجارية: ليس لك ما تفطرين عليه.

فقالت عائشة: اعطيه إياه.

فأعطته الجارية الرغيف.



فلما كان المساء أهداهم جار لهم شاة، وما كان يهديهم من قبل.

فقالت عائشة للجارية: كلي من هذا، هذا خير من رغيفك.

داود الطائي:

كانت لداود الطائي جارية تخدمه، فقالت له: لو طبخت لك دسمًا تأكله؟

فقال لها: وددت ذلك.

فطبخت له دسمًا ثم أتته به، فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟

قالت: على حالهم.

قال: اذهبي بهذا الطعام إليهم.

فقالت: أنت لم تأكل دسمًا منذ كذا وكذا.

فقال لها: إن هؤلاء إذا أكلوه صار إلى العرش، وإذا أكلته صار إلى الحُش (الكَنِيف).

على فراش الموت:

يوم معركة «اليرموك» كان «أبي جهم بن حذيفة» يبحث عن ابن عمه في الجرحى، فوجده بين الجرحى في الرمق الأخير، فقال لابن عمه: أسقيك؟

فأشار إليه أي نعم.

فإذ جريح بجواره يقول: آه، فأشار ابن عمه أن اسقه أولًا، فلما ذهب ليسقيه، إذ بجريح بجواره، يقول: آه، فأشار الرجل إليه أن اسقه أولًا، فلما ذهب ليسقيه وجده قد مات،

فعاد إلى الرجل فوجده قد مات، فعاد إلى ابن عمه فوجده قد مات، وهكذا آثر كل واحد منهم حياة أخيه على حياته.

تَم بحمد الله.



فهرس الصفحات

